الناشر : منشأة المعارف بالإسكندرية . جلال حزى وشركاه.

٤٤ شارع سعد زغلول ت / فاكس ٣٠٣٣٧٨٤ / ٥٥٠٣٥٨٤

Email. Monchaa٢٧@yahoo.com

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف .. غير مسموح بطبع أى جزء من أجزاء الكتاب أو خزنه فى أى نظام لخزن المعلومات واسترجاعها أو نقله على أية وسيلة سواء أكانت الكترونية أو شرائط ممغنطة أو ميكانيكية أو استنساخا أو تسجيلا أو غيرها إلا بإذن كتابى من المؤلف.

إسم الكتاب : يوميات قاضٍ.

المؤلف : المستشار بهاء المرى.

رقم الإيداع : ٢١٠٢٥ / ٢٠١٧

الترقيم الدولى : ٢٢٥٠٣ – ٠٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨

التجهيزات الفنية :

كتابة كمبيوتر : المؤلف.

الغلاف : بريشة الفنان السكندرى الرسام. أ / ماهر جرجس.

يوميات قاضٍ

الواقع ساردًا

المستشار/ بهاء المري

يوميات قاضٍ

الواقع ساردًا

المستشار
بهاء المري

الناشر
منشأة المعارف بالإسكندرية
٢٠١٨

هذه اليوميات

أحداثٌ ووقائعُ عاشها قاضٍ .. حكاياتٌ من الواقع لم يُخامرها خيال .. أتت بحُلوها ومُرِّها وشُخوصها لتستقرَّ أمامه على المنصة ضمن آلاف أوراقٍ متكدسةٍ من قضايا متنوعة.

نظرَها حينًا بعين إنسان يَرْقبُ إنسانًا من خلال أحداثٍ جِسام وضعَتْه لسببٍ أو لآخر بين براثن الاتهام وحينًا آخر بعين قاضٍ يطبِّق القانون بحِرفيةٍ بالغة .. ثم بعين الرحمة وإعمال العقل والمنطق فى أحيان أخرى .. ودائما بعين القانون الزاجر متى كان المجرم عاتيًا فى إجرامه.

وهو فى هذا كله لم يهدف إلى إبراز جُرم أو ترويع مشاعر قارئ .. ولا التَّهوين من فِعلٍ إذا ما توافرت له مُوجبات استعمال الرأفة مع مُجرم هو فى النهاية إنسان.

وإنما كانت غايته التأمل فى فِعال البَشر .. سواء ما فعلوه بأنفسهم أولاً .. أو ما فعلوه بغيرهم وذويهم ثانيا وآخرًا فى مجتمعهم الذى يعيشون فيه .. وُصولا إلى تدبُّر يأخذ بأيدينا إلى طريق صواب .. وتنبيه إلى أنَّ أشجار الشرِّ لا يجنى زارعها إلا ثمار الندم .. ثم إجمالاً دَق نواقيس الخطر.

الإهداء

إلى كل من تُسوّل له نفسه اتباع طريق الشر

لعله يتفكر كثيرا قبل أن يطأه بأقدام

الرعونة.

تقديم

بقلم
الأستاذ الدكتور
السعيد الورقى
أستاذ الأدب الحديث والنقد
بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

****

الواقع هو الأدب الشرعى لكلِّ الحكايات والأخبار وأقصد بالواقع الحياة التى تدور بنا ومن حولنا مُؤلِّفة سرد السَّرد .. أو سرد الواقع .. وهو سرد مثل الحياة بلا منطق إلا الصدفة والصدفة غير المبرَّرة .. فهى صدفة تمتلك قانونها الخاص الذى لا يحتاج إلى تبرير أو تفسير منطقى يُفسِّر به الإنسان حركة الحياة والإنسان.

وعندما يحكى الواقع .. فالعشوائية والمصادَفة والفورية هى سِمة هذا الحكْى .. وهى مفردات لا تُرضى الفنان لحياة موازية يُركِّبها وإن اختار بعض تفصيلاتها أو كل تفصيلاتها من أحداث الحياة الواقعية .. حيث يتدخل فى صياغة إعادة الحكْى ليُحيل هذا الواقع القدَرى إلى سرد فنى تتوافر فيه كل العناصر السَّردية الفنية وأولها القدرة على إعادة

الجدَّة وطزاجة الدهشة للمألوف والعادى .. ويساعدنا على أن نراها من جديد وكأننا نراها للمرة الأولى .. أى يُحيل الواقع إلى فَن .. مُستغلا إمكانات السَّرد الفنى وحيلة الأدائية فيُسهب فى التعامل مع الفضاء السَّردى إذا كان سردهُ معتنيًا بالمكان والزمان الثقافيين وأثرهما فى تشكيل الحدَث أو الشخصية .. أو يحاور الشخصية لتُفصح عن مكنونها النفسى لما له من قيمة تأويلية فى مسار تحريك الأحداث .. أو يتابع الحدَث فيبدأ به السَّرد بدايته النامية المتطورة .. أو يبدأ السَّرد من بؤرة الحدَث أو من النهاية ليعود من خلال الاسترجاع وتقنيات "الفلاش باك" أو يستخدم تقنية الاستباق السَّردى أو غير هذا من حِيَل سرد الحدَث ليصنع لنا حياة موازية تُحيل وقائع الواقع فنًّا.

هذا ما يفعله المستشار بهاء المرى فى حكاياته وقصصه التى يُقدِّم بها ومن خلالها حكايات الواقع عندما يُعيد صياغتها .. فَعَل هذا فى كتابه السابق "يوميات وكيل نيابة" ويُقدمه اليوم بوعى أكبر وإدراك أوسع لمفهوم السَّرد الفنى وحرفياته الأدائية فى كتابه الجديد "يوميات قاضٍ".

أحال المستشار بهاء المرى الواقع فنًّا مُستخدمًا صِيغًا سردية أكثر تطورًا فى الفهم والإحساس والتذوق عن حكْيه السابق .. فقد اتسعَت الرؤية لتتجاوز حدود سرد الواقع كما

هو إلى تحويل الواقع المسرود إلى واقع فَنِّى مع الاحتفاظ بملامح وقائع الواقع المسرود .. ساعَده فى هذا وغلَّبه مطاوعة أدوات السَّرد وحِرفية الصَّنعة لإحساس الكاتب وقد أصبح أكثر تمرُّسًا بأدواته .. وأكثر إحساسًا بلغته السَّردية وتملُّكه الأكثر قدرة لجماليات الأداء السَّردى .. وأكثر وعيًا للمضمون المُختار وأبعاده الاجتماعية والأخلاقية والفكرية الفلسفية والنفسية وعلاقة كل هذا بقضايا الواقع وقضايا الفرد وقضايا الإنسان والعلاقة الجدلية بينهما .. كما أصبح الكاتب هنا أكثر قُدرة واحترافية مع إدارة مفردات البناء السَّردى والبناء داخل بنية تَعدُّد الضمائر .. والسَّرد داخل السَّرد .. وحُسن استخدام "تكنيك" الوعى بأكثر من مستوى أدائى.

يوميات قاضٍ أو عندما يُعيد الفنان حَكْى الواقع سرد قَصصى فنِّى مُبدع .. فيه الواقع .. وفيه الحياة وفيه الفن استمتعتُ بقراءته .. ولا شك فى أن القارئ سيجد فيه فنًّا سرديًا جميلا .. وسيجد فيه مُتعة الإفادة ومُتعة الإحساس وسِحر الحكْى.

الأستاذ الدكتور
السعيد الورقى

خارج نطاق الخدمة

شغَفها حُبًّا .. تعلَّق به قلبها أيَّما تَعلُّق .. كأنَّ اتصاله بها ذات يوم على سبيل الخطأ كان له مفعول السِّحر عندها.

لم تُكذِّب معسول قوله الذى لم يزل باديًا لها منذ يوم واحد .. تهرع إلى مقابلته فى اليوم التالى مباشرة لهذا الاتصال.

تكرَّرت اللقاءات فى المدينة عاصمة القرية التى فيها يسكنان .. تُصدِّق فى كل لقاء أن ما يُتلى على مسامعها هو الحب الذى قرأت عنه فى الروايات أو رأته فى الأفلام والمسلسلات .. فلم يكن لابنة السادسة عشرة من تجارب سابقة.

صارت مجنونة به .. تُقابله ما استطاعت. تتصل به على هاتفه النَّقال آناء الليل وأطراف النهار .. لم يَعُد لهما من سلطان على الغرائز .. يدعوها إلى لقاءٍ فى "عِشَّة" كائنة فى أرضه الزراعية .. تُلبِّى على الفور النداء.

مع غروب الشمس كانت هناك .. أغلق دونها الباب تلقَّفها بين أحضانه .. انهال عليها بقُبلاته .. أسْمَعها من معسول قوله والوعد بالزواج ما طربت له أذناها .. تستطيل

يداه إلى مناطق بعينها من جسدها يُدرك جيدًا مُبتغاه من العبَث بها .. تخورُ قُواها .. تُسلِّم له نفسها راضيةً مُختارة فتغرُب مع غروب الشمس عُذريتها.

لم تندم على فِعلتها .. لم تزل تُصدِّقه .. تتكرر اللقاءات كانت"العِشَّة" شاهدةً عليها .. وعلى أرضها يتحرَّك شيء ما فى أحشائها .. تُخبره به .. لم يشعر بندم .. لم يزل يَعِد بالوفاء.

تبدو عليها علامات الحمل .. دوارٌ وصُداعٌ وقىء. لم تغِب هذه العلامات عن فِطنة أمّها .. تخلو بها الأم تُقرِّرها فتُقر بكل ما حدث .. تبتلع الأم آلام نفسها .. تنصحها بمقابلته ليحسم أمره وإلا أبلغت والدها.

تهرع إليه الطفلة بعفويتها .. تُبلغه حديث أمها. تتغير ملامحه.. تتَّسع عيناه وتلمع فيهما فكرة .. يأخذها فى أحضانه يُهَدهِدُ على ظهرها .. يُطمئنها إلى وعوده مرة أخرى .. يُفهمها أن ظروفه المادية تحول الآن دون الزواج وأنَّ الحل هو إسقاط حملها ولكنَّ الأم ستكون عقبة .. لابد إذَن من الخلاص منها.

يستقر كلامه فى وجدانها وكأنه مُنزَّل من السماء قامت من بين أحضانه .. تقلَّصت عضلات وجهها وكأنها تستحضر ما سيكون .. تومئ برأسها أنها موافقة.

تعود إلى البيت .. أمّها فى انتظارها .. كانت شاردة زائغة العينين وهى تتحدث معها .. وفى النهاية طمأنَتْها سيأتى غدًا يا أمى ليخطبنى.

تستيقظ الطفلة من نومها فى اليوم التالى مبكرًا. شيءٌ ما يدور برأسها .. الأم تسحب الماشية لتخرج بها إلى الحقل تسير من خلفها .. ربطَتْ الأم الماشية وتوجَّهت إلى زراعة البرسيم .. جلست القرفصاء لتحصد منه شيئا لإطعامها تتبعها الطفلة دون هُدى .. لم يكن فى ذِهنها حتى الآن خُطة ما لتنفيذ جُرمها .. تقع عيناها على جسم خشبى ثقيل يُسمِّيه الفلاحون "مَدقَّة" كأنه "جاكوش" يُصنع من الخشب لاستعماله فى أغراض الحقل .. تلتقط "المدقَّة" من على الأرض .. الأم تُوالى حصاد البرسيم .. كلمات حبيبها تطن فى أذنيها .. ترفع "المدَقَّة" عاليةً فى الهواء .. تهوى بها فوق رأس أمّها .. ينفجر بركان الدم من الرأس المغدور به .. تُوالى الضربات .. صورة حبيبها وهو يحتضنها ويُهدهد عليها لم تزل شاخصةً أمام عينيها .. كلماته ترن فى أذنيها .. تصير الأم جثة هامدة.

تتصل بحبيبها فورًا على هاتفه النَّقال .. قتلتُها.. هنَّأها بقُرب الزواج منها .. يسألها عن طبيعة المكان .. قالت فى

حقلنا خلف المنزل .. ينصحَها بإخفاء الجثة .. تنزح إلى الدار تأتى بإناء يحتفظ فيه والدها "ببنزين" ماكينة الرى. تستحضر من المطبخ "ولاعة" .. تسكب البنزين على الجثة وتُضرم النار فيها .. تُغادر المكان .. تتوجَّه إليه فى "العِشَّة". لم يكن هناك تتصل به على هاتفه المحمول .. تسمع العبارة الشهيرة : "الهاتف قد يكون مُغلقا أو خارج نطاق الخدمة" !

على هامش قصاص

هامت حُبًّا بقريب زوجها .. وجدَت فيه ضالَّتها : الأنيس والجليس .. فى أجواءٍ أوشكَتْ فيها عُرَى الزوجية على الانفصام.

الظروف مُهيأة لاستمرار العلاقة .. زوجٌ يقضى يومه خارج بيته سَعيًا على قُوتِه وقوت أولاده .. زوجة غَيَّبت نفسها عنه ونسجَت لنفسها الأعذار .. عشيق عاطل بلا عمل.

تنمو سريعًا مشاعر الخيانة .. يصير البيتُ فى غياب صاحبه مَرتعًا للرذيلة.. لم يقنعا بما تَحقَّق.. الزَّوج عقبة فى طريقهما كؤود .. لابد من قتله.

شهرٌ كامل يفكران .. نقتله بالسُّم .. لا لا .. إنَّ السُّمَّ يترك آثارًا .. يصدمه العشيق بسيارة .. لا لا .. قد يُبصره الناس فى الطريق.

فى لحظةٍ وهى أمام التلفاز تنفرج أسارير وجهها تبتسم ابتسامة مُنتصر .. تمسك بالهاتف .. تستدعيه فورًا للحضور .. يجىء على عَجَلٍ .. قالت : وجدتُها .. "فوطة مُبلَّلة" كما رأيتُ فى فيلم "ريَّا وسكينة".

يُسَرُّ العشيق .. تَحِين منه ابتسامة ونظرة خبيثة. يسألها متى سيعود .. تفهم المغزَى . تبتسم بمثل ذات الخُبث. تُغادره دون إجابة .. تعود بعد دقائق كعروس ليلة زفافها .. يَهُبُّ واقفا فاتحًا أحضانه .. يُطوِّقها بذراعيه .. يمارسان الرذيلة حتى يعود الزوج.

يدُقُّ الضَّحية جرس الباب .. يهرع العشيق إلى دولاب الملابس فى غرفة النوم .. تفتح هى الباب .. يفرك الزوج عينيه .. يسألها : مَن أنتِ .. تضحك بخبث .. تداعبه تلاطفه .. يشتهيها كزوجة .. يغلبه النعاس .. تستدعى العشيق من الدولاب كالخطة المرسومة عبر "رَنَّة" على هاتفه النقَّال .. يخرج بالفوطة المُبلَّلة .. يعتليان السرير .. يُجهزان عليه .. يُقاوم .. تُمسِك بخصيتية بقوة .. تشل حركته. يكتمان بالفوطة المبلَّلة أنفاسة .. تصعد الروح إلى بارئها.

يلتقطان أنفاسهما .. تنظر فى عينيه .. ينظر فى عينيها تُطوِّقه بذراعيها .. تتحرك رغبتهما من جديد .. يُغادران إلى حجرة أخرى .. يمارسان الرذيلة قبل أن ينصرف.

يشيع النبأ.. يعترفان فى تحقيقات النيابة .. يُحالان للمحاكمة .. يحتل المحامون الصفوف الثلاثة الأُوَل. تنشغل

باقى الصفوف بالأهالى .. تلتصق أجساد الحضور بالأجساد تُخيِّم على الأجواء حرارة الأنفاس .. يُخفِّف الحاجب حدتها بتشغيل مرواح السقف فى عِزّ الشتاء.

ينتصبان فى قفص الاتهام .. يُواجههما القاضى فيعترفان .. قتلناه لنتزوج .. تبدأ الإجراءات .. ينبرى اثنان من كبار المحامين للدفاع .. يطلب القاضى منهما المرافعة يتململان .. يستأجلان للاستعداد . يرفض الأجل .. المتهمان معترفان فلتُناقشا الاعتراف .. يرفضان .. يَسوقان حِججًا أخرى .. يرفض الحِجج .. يدفعان بجنون العشيقين .. يُثبت الدَّفع فى محضر الجلسة .. يُصر على المرافعة.

يستشعر الحاضرون ما يحدث .. تسرى فى القاعة همهمة .. تنبعث أصوات مكتومة تُعرب عن ضَجَر.. يَدُق القاضى المنصة بمؤخرة قلمه الرصاص .. يعود الصمت إلى القاعة.

المحاميان يصمتان .. ينظر إليهما القاضى مُحدِّقًا اللحظات تمرُّ رتيبة .. أعين الناس مُصوَّبة نحوهما .. يبدو الحَنق على الوجوه .. القاضى يُعيد الطلب .. يتفتق ذهن أحدهما عن حيلة جديدة .. ضم حرز الملابس الداخلية للمتهمة .. يقطع عليه القاضى مأربه .. يُثبت فى محضر الجلسة

طرْحَه له كدليل إدانة .. يَحتدّ المحامى .. يُهدِّئهُ القاضى . يُعيد توجيهه إلى الموضوعية .. يُصمِّم على الطلب .. يَفهم الناس تلك المراوغة .. تعود الهمهمة .. تنقلب إلى زمجرة مكتومة يَدُق القاضى فى هذه المرة على المنصة بيده .. يعود الصمت .لا يَمتثل المحامى .. يُجادل من جديد .. يَرفع القاضى الجلسة يدخل القضاة غرفة المداولة .. يتبعهم أمين السر .. يُبلغهم أنَّ الأستاذ طريح الأرض يضربه الأهالى.

الحكم عنوان الحقيقة

انطلقَتْ الزغاريد فى أرجاء البيت مُعلنةً قدوم ولىِّ عهد ذلك الشاب الوحيد .. هزَّت أهازيج المواليد أرجاء القرية.

يتناقل الناس الخبَر .. يتوافد المهنئون .. تتحامل الجدة العجوز على رعشات جسمها .. تحاول الوقوف بين النساء تأتى بحركات تظنُّها رقصًا .. يبكى الناس لفرحتها وتغلبهم الدموع.

يحين موعد السُّبوع .. تُقرر الجدة إقامة حفل غير مسبوق .. يستقل الشاب سيارته ويغادر إلى المدينة المتاخمة لقريته .. يقابل أصدقاءه .. يزفُّ إليهم الخبَر .. يحتفون به إلى وقتٍ متأخر من الليل .. يملأ السيارة بما لذَّ وطاب .. ينطلق عائدًا بها بعد منتصف الليل .. يُردِّد مع "شادية" من خلال "كاسيت" السيارة وابتسامة عريضة على شفتيه "سِيد الحبايب يا ضَنايا إنتَ" .. يشعر أنَّ السيارة لا تمشى على الأرض بل يحملها بساط الريح.

جِذع شجرة يقطع الطريق .. يتوقف .. يَخرج عليه أربع ببنادق آلية .. يقترب منه أحدهم .. يُصدِر إليه أوامره دع السيارة وأعطنى المفتاح .. الشاب قوىّ البنية .. يُقاوم يتبادلان اللكمات .. صورة وليده ومراسم السبُّوع تنتصب أمام عينيه .. يشتدَّ فى المقاومة .. يعود إلى سيارته .. يتشبس بمِقوَدِها .. يجذبه المجرم فلا يستطيع .. يبتعد عنه .. يُفرغ عبوة البندقية فى صدره .. يتركونه جُثة فى سيارته ويهربون.

تتوافد الأهالى على صوت الطلقات .. ينتشرون بحثًا عن دليل .. يُوالى المجرمون الفرار .. تقابلهم سيارة عملاقة يتريثون لينفسح الطريق .. تلتقط كاميرا أحد المقاهى صورة ما يدور.

يهرع رجال الشرطة إلى المكان .. يفرغون الكاميرا سيارة يستقلها أربعة .. بنادق آلية فى أيديهم .. يقبضون على صاحبها .. يُرشد عن الباقين وعن السلاح .. يعترفون أمام النيابة.

ينتهى النبأ إلى أهل القتيل . تسقط الأم العجوز . تفقد النطق .. تُودَع الزَّوجة الشابَّة العناية المُركَّزة .. تنقلب الأفراح إلى أتراح.

يُحالون إلى المحاكمة .. تُعقَد الجلسة وسطَ زحام شديد .. تُشدِّد الشرطة الحراسة على القفص .. مقعد مُتحرِّك أمام المنصة تعتليه الأم الثّكلى .. الزوجة الشابة تلتحف السواد .. تضم رضيعها إلى صدرها .. تقبض عليه بقوة جسدها يرتعد .. تحاول إخفاء الرَّعدات دون جدوى. تتَّسع عيناها وتروح رَغمًا عنها إلى القفص .. ثم تعود فى استكانة لتتعلق بالمنصَّة .. تبدأ الإجراءات .. يَنهض بالوقوف كوكبة من المحامين .. يتقدم كبيرهم إلى المنصَّة .. يصير دون أن يدرى واقفًا إلى جوارهما .. يلتمس القضاء ببراءة المتهمين يخلوا القضاة إلى أنفسهم .. تُحالُ أوراق الدعوى إلى فضيلة المفتى.

حتى لا ينالـه أحـد

مجنونةٌ بهِ .. هو كل شىءٍ فى حياتها .. كأنه لم يَزل ابن العامين حين مات والده من عشرين عاما .. تُرافقه فى ذهابه وإيابه .. تنتظره أمام عملِه .. تخرج معه حتى فى لقاءات أصدقائه .. لا تنام إلا وهو فى حُضنها.

تحرَّكت مشاعره نحو إحدى زميلاته .. حدَّثها فى أمر زواجه منها .. لم تَهتم .. بحَث عن غيرها .. لم تُوافقه. فوَّضها فى أن تختار له .. لم تكترث .. أعاد عليها الطلب .. أمْهَلَتهُ دون رد .. ألمَحَ إلى إحدى قريباتها .. قالت إنها لا تُحبها يواجهها لماذا الرَّفض .. قالت : ماذا ينقصك ؟ .. حاول إفهامها .. أغلقَتْ أذنيها ونَحَّت عقلها.

لم يجد بُدًّا من المواجهة .. أُمَّاه قرَّرتُ الزواج ولا أجد مبرِّرا لرفضِك .. زَمْجَرَتْ .. كادت أن تفقد عقلها .. تلتزم الصَّمت .. تتحاشاه حتى لا يُحدِّثها.

عاد ليطرح المُشكلة .. قالت : لن يَحدُث ما دُمتُ حَيَّة لن تأخذك مِنِّى واحدة .. يُطمئنها .. تَصُمّ آذانها.

ينصحه أحدهم أن يفاجئها .. أُمَّاه خطبتُ ولسوف تُعجبك العروس.. تُغادره قبل أن يُكمل .. تُغلق عليها حجرتها .. تُقاطعة.

يبدأ فى تجهيز شَقَّتة .. يُبلغها لعلها ترجع .. تتَّسع عيناها .. تكاد أنْ تَجحَظ .. تقوم إلى غرفتها .. تسير وكأنها مُتخشِّبة .. خاف من نظراتها .. أوى إلى حجرته.

يَجنُّ عليها الليل .. تتزيَّن .. ترتدى ملابس فاضحة تقتحم عليه حجرته .. تُفاجِئه .. سأُعطيك ما تَبحث عنهُ. لا يُصدِّق عينيه .. لا يُصدِّق أذنيه .. يقوم مذعورًا .. تحتضنه تنهال عليه تقبيلاً .. يدفَعها .. تقترب .. يتملَّص منها. تُحكِم عليه قبضتها .. تُوالى ما تفعل .. تستمر .. تنهار مُقاومته يصير وأمّه كزوجين.

شهران .. ثلاثة .. يعود إلى رشده .. يشعر بندم. يكرَه نفسه .. يرفض .. تُصمِّم .. يمتنع .. تُصِرّ.. قال : لن أعود ولو تقتلينني .. سأتزوج.

تتركه .. تقف مُتصلِّبة . تسير ببطء إلى غرفتها . تجلس على حافَّة السَّرير بملابسها الداخلية .. ينبلج الصباح . تتوجَّه إلى حظيرة الماشية .. تفتح علبة سُمّ آفات القطن "لانيت"

تأخذ منها مِلعقة .. تضع الملعقة فى كوب اللبن .. تُعِدّ له الإفطار .. تُقدِّم له اللبن .. يُنقل إلى المستشفى .. تصعد الروح إلى بارئها .. يُقبَض عليها .. تعترف : حتى لا يناله أحد !

غِياب

سافر الزَّوج الشاب بعد شهر واحد من عُرسه .. عقْد العمل مُجزٍ لا يمكن رفضه .. تمتثل العَروس الشابة لضغوط الحياة .. تَبقَى مع أسرتها حتى يعود .. الشَّقة غرفتان. تتقاسم هى وشقيقها إحداهما والوالدان الأخرى.

يعثر الناس على جثةٍ لمولود مذبوح .. تُوالى الشرطة البحث والتحرى .. هو ابنها.

يواجهونها تعترف .. شىءٌ ما كان ينقصها .. حَاولت مقاومة غرائزها دون جدوى .. تجدُه هو أمامها .. يقضيان وقتًا طويلاً من الليل معًا .. الوالدان فى غرفتهما .. تستدرجه تبدأ بسؤاله عن علاقاته النِّسائية .. لا يجاريها .. تُقابله بملابس النوم كلما عاد متأخرًا .. لا يكترث .. تتصنَّع النوم وتُظهر شيئًا من مفاتنها .. يُغطِّيها .. يَضيق صدرها .. تُعاود الكرَّة .. لم يتوقع مأربها .. لم تَفقد جميع الحِيل.

تَسهر ذات ليلة حتى يعود .. يُبصرها بملابس فاضحة .. يَهُمّ خارجًا .. تُغلق الباب .. تُصارحه .. يقاومها تتمكَّن منه .. تُمطره بوابل من القُبلات .. يضعفان .. تصير هى وشقيقها كزوجين فى غرفتهما المشتركة.

سقطا فى الإخراج

كان أحدهم يزور الجار الملاصق لهما .. ينزلق الحديث إلى سيرتها .. تمارس الرذيلة مع الرجال دون تمييز لقاء مال يسأله الزَّائر عن عِلم زوجها .. يقول عنه : "هو مُنظِّم المرور".

الدَّاران مُتلاصقان .. ثقوب الجدران تسمح بتبادل سماع ما يدور .. يفهم الزوج المعنى .. تثور ثائرته .. يرغى ويزبد .. يُقرِّر الانتقام.

يستلُّ سكينًا كبيرًا .. تتبعه زوجته .. تَشدُّ من أزره يقتحمان عليه داره .. يختبئ الزَّائر .. يُسدِّد للجار عشرين طعنة .. يسقط قتيلا.

يحملان الجثة إلى دارهما .. يضعانها فى حُجرة النَّوم تصرخ .. يهرع إليهما الجيران . هى بملابس نوم فاضحة. جثة رجل ملقاة أرضًا بعد تعريتها .. يقول الزوج كانا متلبسين بالزنا .. شهادة الزَّائر تُفسد الإخراج.

سَراب وأطفال

صاحَ الحاجب صَيْحتهُ الشهيرة (مَحكمهْ) فَهَبَّ مَن فى القاعة واقفين .. يَبسُط القاضى كفَّيهِ وهو يَمُدُّ ذراعيه للأمام فيجلسون.

يَجُولُ ببصره فى القاعة .. يلمح القفصَ الحديدىّ وقد اكتظَّ عن آخره بمَن فيه .. يأمرُ بإخراج أربعةَ عشرَ طفلاً ويُخْلى لهم مَقاعدَ فى آخر القاعة.

يبدأُ فى فَضِّ الأحراز ويأمر بتشغيل جهاز الفيديو على شاشة العرض الكبيرة .. تظاهُرة كُبرى .. لافتات مُناهضة للدولة .. سبٌّ وقذفٌ وإهاناتٌ فى حق الوطن ومؤسساته.

تتوالى المشاهد .. تَخريب مُمتلكات .. إشعال شماريخ وضع نار فى محلات .. إتلاف سيارات .. قَطعٌ للطريق بإطارات مشتعلة و..... و..... إلخ.

تَظْهَر ضِمنَ الأحداثِ مَقاطعُ للأطفال .. يفعلون كما يفعل الكبار .. يُردِّدون من خلفهم ذات الهُتافات.

يأمر القاضى بإيقاف التشغيل مُؤقتًا .. يأتى بهم من آخر القاعة .. تترواح أعمارهم بَيْنَ الثالثةَ عَشرَة إلى ما قَبل الثامنةَ عَشرة.

يُعادُ التشغيل ببطء .. يُضاهى أشخاصهم على الفيديو .. يواجهَهُم .. فيعترفون.

يَصمتُ بُرهة .. يُرخى عَينيْه إلى المنصَّة .. يُطْبقُ على القاعة صَمتٌ مُخيف .. تُحَمْلقُ فيه الأعين وتشْرَئِبُّ إليه الأعناق.

تتلاحَق فى ذِهنه تَساؤلاتٌ شائكة .. هل يُدركُ هؤلاء الأطفال ما يفعلون .. هل يُؤمنون بما يُردِّدونَ .. هل يعلمون مَغزَى ما يصنعون . هل يستَوعبونَ فى هذا العمر ما يدور . أيًا ما كان الأمر فقد باتوا مُجرمين.

يستشعر أنَّ صَمتهُ قد طَال .. يسحبُ نَفَسًا عميقًا يُخرجهُ زَفْرةً دون صَوْت .. يسألهم بِرفق ليغُوصَ لحظيًا فى نفوسهم وهو يُشير إلى الشاشة : لماذا ما رَأينا ؟!

يُجيبون بتلقائية مُفرطة وفى انكسار شديد : قالوا لنا ستأخذون بعد المظاهرة (تِى شِيرتات) !

هَوَس

حراساتٌ مشدَّدة .. زحامٌ فى القاعة .. عددٌ يجاوز العشرين من جهابزة المحامين يحضر معهم .. مرافعات ساخنة.

يرفع القاضى الجلسة .. عدَّة ساعاتٍ تنتهى خلالها المداولة.

كانوا خمسةَ عشر .. يعترف ثلاثة منهم باستخدام العنف ابتغاء إنقاذ الوطن .. تتأيد اعترافاتهم بأدلة أخرى دامغة .. يُنكر الباقون ولا يتوفَّر دليلٌ ضدهم.

يُجهِّز الحاجب القاعة للنطق بالأحكام .. يُنبِّه على الموجودين فى القفص بالرَّدِّ عند النداء .. الثلاثة الأول غائبون .. هربوا من سِجنهم قبل المحاكمة .. الباقون حاضرون.

يَصيح الحاجب : (محكمة).

ينطق القاضى بالحكم الصادر فى حقهم : (براءة). يصرخون رغم براءتهم : يسقط يسقط حكم العَسْكر !.

قرابين الشيطان

لم يشأ القَدَر أنْ يُتوَّجَ حُبهما المجنون بإنجاب أبناء .. لم يَفْلح طوافهما بعيادات الأطباء ومعامل التحاليل فى إيجاد أمل حتى الدَّجالون طَرَقا أبوابهم دون جَدوى .. أعيَتهما جميع الحِيَل عن أن يجِدا لِعُقمِهِ علاجًا.

حُزنٌ شديدٌ يُسيطر على الزَّوجةِ الشَّابة .. لا تدَع وقتًا يَمُر إلا وأعرَبَت فيه عن اشتياقها للأمومة .. يتألم الزَّوج من أجلها .. يُخيِّرُها فى الطلاق إيثارًا لها كى تُنجبَ من غيرهِ فترفض.

يُطاردها أهلها .. سنواتٌ تمرُّ سريعًا دون إنجابٍ فما جدوى العيش معه .. تزداد حُزنًا وهَمًّا .. لا تقوى على بِعاده مهما كان السبب .. لم تَتخيَّل يومًا تعيش فيه لحظةً واحدةً بعيدًا عنه.

يواصل أهلها محاصرتها بُغْيَةَ تطليقها .. لا تكُفُّ عن البكاء .. أصبح لسانها مُبَرمَجًا على عبارة "أريدُ طفلا لِكَىْ أبقَى معَكْ".

لم يَعُد أمرُ الإنجاب يَهمُّه بِقَدْرِ ما تُؤلمه أحزانها .. لم يَعُد يَقْوى على رُؤية دموعها الدائمة.

يَتفتَّق ذهنه عن أمرٍ جلَل .. يُواجهها .. سأُحقِّقُ لكِ رغبتكْ .. يَتهلَّل وجهها .. تنفرج أساريرها عن ابتسامة عريضة .. بل تنتفضُ فى مكانها واقفةً لتسمعَ أخطرَ نبأٍ فى حياتها.

تسأله فى لهفةٍ بالغة .. هل كانت التحاليل كاذبة. هل كانت لشخص آخر ونُسِبَت إليكَ خطأً .. هل رأيتَ ليلة القدر ودعوتَ فاستُجيبَت دعوتكْ .. قل لى كيفَ .. منذ متى تَعرِف .. ولماذا تركتنى لأتعذب ؟

يصُمت لحظاتٍ قبل أن يُكملَ حديثه .. تمرُّ اللحظات وكأنها دهر .. يستجمع قُواه .. يسحب نفَسًا عميقًا يُخرجه تنهيدة حزينة .. يقول .. سآتيكِ بِمن يُعاشِرك .. ستكونين أُمًا ولن أفارقكْ !

تسمَرَّت ملامحها .. شُلَّت أعضاؤها .. أشاحت عنه لحظيًا بوجهها .. انتابَها الخوف .. تعود لتجلس فى مكانها عيناها مفتوحتان دون أن ترمِش.

اللحظاتُ قاسية .. تمرُّ ثقيلةً ثقيلة .. تستدير وكأنها مُتخشِّبة .. تضحك فى هيستيريا .. تحتضنه .. تغمرهُ بوابل من القُبلات .. تُعلن له مُوافقتها !

يقترحُ للمُهِمَّةِ قريب لها اعتاد زيارتها .. تحدَّثت فى الأمر مع قريبها .. يرفض حتى يسمعَ ذلك من زوجها. يُوجِّه إليه الزَّوج ذات الطلب .. ينزحان إلى مدينة كبرى .. تنتهى المأمورية .. تسعة أشهر وتضع حملها !

تثور ثائرة أهلِه .. يطردونها .. لم يستسلما .. يلتقيان خُلسة .. يُفكِّران .. لو تخلَّصنا من الوليد عُدنا.. يقتلان الوليد .. يلتقيان فعلاً من جديد .. ولكن هذه المرَّة فى قفص الاتهام.

وِجْدان

لم يُصدِّق القاضي عينيه وهو يُطالع أوراق الدعوى تنتابه حالة مُفاجئة من الدَّهشة .. تتصاعد دهشته كلما توغَّل في القراءة .. لا يريد أن يُصدِّق أنها هي .. يحاولُ إقناعَ نفسه أنَّ تشابُهًا في الأسماء إلى حدِّ التطابق هو ما حدث.

لم يبدأ الجلسة بما اعتاد أن يبدأ به .. وجده الحضور يوجِّه بصره إلى القفص منذ لحظة جلوسه على المنصَّة يتفحص مَن فيه وهو يميل برأسه قليلاً يُمنةً ويُسرة .. إنها هي. انزوَت في الركن الملاصق للباب مباشرة بعيدًا عن الرجال.

يعود ببصره أدراجه وقد بدت على ملامحه علامات الأسى .. ينادي الحاجب اسمها .. ينهض محاميها من مجلسه يشرع في إبداء طلباته .. يرفع القاضي كف يده اليمنى مبسوطًا في مواجهته بما يعني : انتظِر .. ركَنَ إلى استجلاء الحقيقة بنفسه.

لقد اقترب منها منذ ما يربو على أربعين عاما .. أحبَّها وأحبَّته في زمن الصِّبا ثم تفرَّقت بهما السُّبل .. رقَّة قلبها وسُموّ مشاعرها لا يجعلانه يُصدق ما نُسب إليها من جُرم يُقرِّر التأجيل لليوم التالي لمناقشة الطبيب الشرعي.

تَحرَّش بها القتيل فَجرًا وهى فى انتظار المِصعد . دفعَتْهُ فسقط أرضًا وانتزَعَت منه مسدسه وأطلقَتْ منه عيارًا ناريًا استقرَّ فى رأسه .. جُرحٌ قطعىٌّ بالرأس يبلغ عشرة سنتيمترات فتحة خروج لمقذوفٍ نارى عُثِرَ عليه بمكان الحادث .. نزْفٌ غزير وصدمة أدَّيا للوفاة.

لم يأتِ الطبيب الشرعى بتعليل لفتحة خروج المقذوف النارى بغير فتحة دخول .. لم يذكر سببا للجرح القطعى وهو ما لا يحدث من طلق نارى .. ولَم .. ولَم.

يأتى بها من القفص .. تنظره نظرة طويلة مُتفرِّسه تخفِض وجهها لتتحاشى عينيه .. يوافق محاميها على مناقشتها يسألها القاضى وكأنه مُتيقن من براءتها .. مَن كان معكِ. كيف حدث الجرح القطعى .. لماذا فتحة خروج بغير فتحة دخول للمقذوف ولماذا .. ولماذا ؟.

تلجلَجت .. تمتمت بعبارات لم تُكملها .. تنساب دموعها على خدَّيها .. يُطبق على القاعة صمتٌ رهيب .. ترفعَ وجهها إلى المنصة .. تنظر فى عينيه وكأنها تقول حقًا أنتَ أعلمُ بىَ مِنِّى .. قالت : القاتل ابنى .. ثارت ثائرته حين أدركَ فِعلة القتيل معى .. ضربَه ضربةً قويةً أطاحت به فاصطدم رأسه

بحَرف سور السلم .. صرفتُه ليُحضر سيارة إسعاف .. كان القتيل قد مات .. أمسكتُ بالمسدس .. وضعتهُ فى الجرح وأطلقتُ منه طلقة .. قلتُ أفتدى ابنى ..اعترف ابنى للشرطة بحقيقة ما حدث .. ظنُّوه يحمل الوزر عنِّى فلم يصدقوه وبقيتُ أنا على اعترافى فداءً له .. هو لم يقتله كان يدفعه بعيدا عنى.

يرفع القاضى الجلسة .. يرتاح وجدانه .. يُحيل القضية لدائرة أخرى لاستشعار الحرج.

كوالِيس الخِيانة

صارت تكرهها كرهًا لا حدود له بعد أن أيقنَتْ علاقتها بزوجها .. كانتا من قبل صديقتين حميمتين لا تفترقان معظم الوقت .. إبتلعَت آلامها ولم تشأ افتعال مشكلة فالصديقة تعرف عنها علاقتها هى الأخرى بصاحب كوافير كان يحبها قبل زواجها.

العلاقة شائكة .. الزوجان شقيقان .. وكل منهما تتدخر سرًا عن الأخرى .. ولكنها استشعرَت منها خطرًا أكبر بعد أن صارت أرملة .. ولِما راح يتذرَّع به زوجها من وجوب رعايتها هى وابنها الوحيد بعد موت شقيقه عنهما.

لم يتوقف الحقد والتخطيط لتدميرها عند حدٍّ مُعين راحت توَسوس لزوجها بخطورة إمكانية زواجها وصيرورة الثروة الكبرى التى خلَّفها شقيقه لغريب تجلبه إليهم.

لم يعبأ بكلامها .. يستمر فى التردُّد عليها .. يلاحظ تغييرًا ملحوظًا على حياتها .. يظهر على مسرح الأحداث ابن عمها .. يزورها فى أوقات كثيرة .. نشبَت بينهما خلافات بسببه .. هدَّدها إنْ هى تزوجته .. فثروة ابن أخيه لن تذهب

لغريب مهما كان الثمن .. تطرده من مسكنها وتحذِّره من معاودة زيارتها.

تجدُ زوجته مأربها فى هذا الحدَث .. تشتدُّ وسوستها له .. تملأ قلبه حِقدًا عليها وعلى ابنها .. هذه الثروة لا يجب أن تضيع سُدى .. بل ابننا أولى بها .. أنتَ تعلم أنها خائنة ويمكنها تفضيل ابن عمها على ابنها .. فلْيَمُت الابن لتعود إليك الثروة.

يشيعُ نبأ عقد ابن عمها العزم على الزواج منها .. يغلى الدم فى عروقه .. يتذكَّر ما قالته زوجته .. يتملَّك منه الشيطان .. يُصمِّم على قتله.

يترصَّدها حال عودتها هى وابنها فى ساعة متأخرة من الليل .. يُطلق عيارًا ناريًا صوب الإبن فيرديه قتيلاً فى الحال ويُصيبها العيار فى ذات الوقت وتُنقل إلى المستشفى.

تَحضُر الأم الثَّكلى جلسة المحاكمة .. يطلب محاميها سماعها فى جلسة سرِّية لإبداء أقوال جديدة لم تقلها من قبل فى تحقيقات النيابة.

يرفع القاضى الجلسة .. يأتى بالمتهم من القفص إلى غرفة المداولة .. تُوجِّه حديثها للقاضى وكأنها تجيد المرافعة

أعلم أنكم قد تقضون بإعدامه .. ولكنِّى أراها عقوبة غير كافية فلسوف يستريح بالموت.

تستدير لتكون فى مواجهة المتهم .. تتقلَّص عضلات وجهها .. تضغط على أسنانها بقوة وفكَّاها يتحركان يُمنةً ويُسرة .. تُحدِّقُ فيه بنظراتٍ ينبعث منها الشَّرر .. تخاطبه وقد اتَّسعت عيناها اتِّساعًا غريبًا .. أمَّا أنتَ .. فقد جئتُ اليوم لأقول لكَ ما لم تعلمه .. لأحرق قلبكَ قبل أن تموت. أتعرف من الذى قتلته ؟ .. الذى قتلتُه هو ابنك . حَمَلْتُ به منكَ أتذكر متى .. بالطبع أنتَ تذكر.

تصمُتْ .. تستمر مُحدِّقة فيه للحظات .. يُطبق الصَّمت مع صمتها على المكان .. فَغَرت الأفواه واتَّسعت العيون .. يُصاب المتهم بالذهول .. يُحملق حَملقة وكأن عينيه أوشكَتا على الجحوظ .. يفتح فاه ليتكلم .. يتحشرج صوته ولا يقدر على الكلام .. بقىَ فاغرًا فاه مادًّا يده إلى الأمام ينتابها ضَحِكٌ هيستيرى يقطع الصمت بصورة مأساوية تقول والضَّحك يتعالى ويتعالى .. وابنك الذى فى بيتكَ ليس ابنك هو ابن فلان الكوافير .. يسقط المتهم على الأرض .. تستمر فى الضَحِك .. يرفع القاضى الجلسة.

عندما يَرعى الذئاب

جَنَّ عليها الليل ولم يَعُد زوجها عند منتصفه كما اعتاد الشتاءُ قارس وصوت هُطول الأمطار والرَّعد جعلا رهبةً شديدة لم تعتدها من قبل تدُبُّ فى أوصالها.

ساورها القلق لتأخره ، فأجرت اتصالاً به ، فأجابها بقُرب عودته ، وأردفَ بأن صديقة سيحضر خلال دقائق فلتُضيِّفهُ حتى يعود.

فور إغلاق الهاتف تسمع طرْقًا خفيفًا على الباب. هو صديقه الذى لا ينفكُّ عنه أغلب الأوقات.

لم يكن أمر حضور الصديق مُستَغربًا فى مثل هذا الوقت ، فقد اعتادا التلازم ليل نهار ، لا يفرِّقهما سوى ساعات النوم ، ومما أزْكَى هذا التلازم أنَّ عملاً واحدًا يجمعهما ذهابًا وإيابًا فلا يكادان يفترقان.

كم استقبلَتْه فى بيتها حتى فى غياب زوجها إلى أن يعود .. لم يَبدُر منه يومًا ما يُوغِر صدرها ولا ما يجعلها ترفض استقباله أو تخشاه.

يدخل الصديق كالعادة .. قَصَدَ ذلك المكان المُخصَّص للقاء الضيوف .. تستأذنه لتُعِدَّ له مشروبًا .. على غير عادته يطلب منها أن تجالسه .. لم يفعلها من قبل إستدارت إليه مُتجهمةً مُحملقةً وتيار من الخوف المفاجىء بدأ يسرى فى أوصالها .. لم تَنبِس بكلمة .. وكأنَّ صمتها يعنى هات ما عِندك.

تنفرجُ شفتاه عن ابتسامة ماكرة .. يلمع فى عينيه مَكْر الخيانة .. تتسارع دقات قلبها .. تضغط فكَّيها على بعضهما فى حركةٍ لا إرادية .. ينطق بعبارات غزَل صريح فى مفاتن جِسمها.

تَخرُج عن صمتها كالبركان المنفجر .. تصرخ فيه. ماذا دَهاك هذه الليلة .. أجُنِنتَ أم أنَّك سكران .. ينتفضُ من مجلسه .. ينقضُّ عليها كالثور الهائج .. تقاومه .. يَشُقُّ قُبلها بعنفوان بالغ .. تدفعه دفعةً قوية تُلصقه بالحائط المقابل تصرخ صرخة مُدوِّية .. ينفتح الباب فى لمح البصر .. تجد زوجها من خلفها يَسُدُّ فاها بكف يده.

تنفلت من بين يديه .. تُحملق فيه بشدة وهى ترتجف تُتمتم بكلماتٍ لا تُريد مقاطعها أن تكتمل : " هو الذى ....

أنا فوجئت .... هو .... أنا ..... لا أدرى ما .... " ثم تنهار لتدخل فى نوبة من النَّحيب.

الزوج يُهدِّئ من رَوعها .. يضمُّها إلى صدره. يَرْبتُ على كتفيها .. تأنس إلى أنه لن يُسىء فهمها.

تهدأ قليلا .. الصديق يجلس فى مقعده .. ابتسامة باهتة على شفتيه .. يتبادل مع زوجها نظرات غريبة .. يرد عليه الزوج بابتسامة مماثلة .. تواجهه بنظرة حادة بعينين قد اتسعتا إلى درجة جحوظ المقلتين .. يفهم زوجها النظرة يتبسَّم فى وجهها .. يُخبرها بهدوء .. أنا الذى طلبْتُ منه ما فعل !

تدفعه هو الآخر دفعة قوية .. تفقد السيطرة على أعصابها .. تَبصُق فى وجهه عِدَّة مرَّات .. .. تُطلق صرخات مُدوية بقوة ما اعتراها من نَذالته .. يملأ الصُّراخ أرجاء المكان .. يتجمع الجيران .. يُبصرون قُبلها وقد شُقَّ فأظهر عورتها .. يتحفَّظون على الصديق .. عبثًا حاول الزوج إثناءهم عن إبلاغ الشرطة .. يزعُم كذبا أنه الذى دفَع به لاختبار خُلِقها.

تَتْرى باقى الوقائع .. كانا قد اتفقا على تبادل الزوجات وفاز هو ببدء الماراثون .. بَيْدَ أنه لم يقوَ مثل صديقه على أن يطلب منها ذلك فتركه وشأنه معها .. كان الدَّور على الصديق فى حراسته المشددة وهو ينتظره خارج الباب.

أسباب ما كان

عامٌ مَرَّ على زواجهما لم يشعر خلاله بانسجام تام يشعر أنَّ شيئًا هامًا لم يزل ينقصه .. حاول كثيرا إفهامها ولكن دون جدوى .. تُصمِّم على قناعتها بعكس ما ينتظر منها.

قرَّر مواجهة أُمّها بأمرها .. ولكنَّ حَيرة شديدةً تملَّكت تفكيره .. أإذا تجرَّأ وباحَ لها فهل سيُمْكنها استيعاب ما يشكو .. أم ستَعتبر الأمر ضربًا من ضروب العبَث .. هل ستنظره نظرة استهجانٍ تعقُبها ابتسامة ساخرة .. أم ستَراه ترَفًا لا محلَّ له وسَطَ أجواءٍ قاسيةٍ من ماديات الحياة .. بل خَشِيَ كثيرا أن تحسبه متجاوزا حدود الأدب.

جلس معها مهمومًا تبدو عليه علامات الأسى .. لم يعرف من أين يبدأ .. ولكنه استطاع أن يُلمِّحَ إلى رؤية ابنتها لتلك المسألة .. وكيف إلى أى حدٍ تراها عِبئًا .. وإذا سلَّمت بها مرَّة راوغَت منها مرَّات .. وعند حصولها فكأنها غير موجودة .. وكيف أنه كلما أفهمَها رمَقته بنظرة استنكار بحجة أنها زوجته وليست من نساء الهوى.

تبدو على وجهها فى التَّوِّ علامات الامتعاض. تستنكر ما يقول دون أن تدرى حين أجابته باقتضاب : "عَيبٌ هو الحديث فى أمرٍ كهذا .. ماذا تقول عنِّى ابنتى إذا تحدثتُ فيه معها".

ينصحه أحدهم بأن يُثْنَى ويدعها وشأنها .. إحدى قريباته مطلقة ولا تحتاج سوى زوج .. تملك شقتها ودخلاً ماديًا كبيرًا ولن تطلب مسكنًا ولا نفقات .. وشرطها أن يكون زواجًا عُرفيا.

يجد فى اقتراح صديقه ملاذًا لمتاعبه .. يُنفِّذُ فورًا دونما تفكير .. يشيع النبأ .. تثور ثائرتها .. لم تتوان عن رفع دعوى التطليق للضرر.

وفى جلسةٍ سريةٍ كان بَوْحها ولكن بعد فوات الأوان وكأنها دون أن تدرى أرادت باسترجاع وصايا جدتها العجوز ليلة ما قبل الزفاف أن تحُط عن نفسها قالة التقصير.

قالت تسبقها دموعها : لا أرانى قصَّرتُ معه فى شىء كان يريدنى على نحو ما .. مُتناسيًا أننى زوجته ولستُ بائعة هوى .. ولكن كيف ذلك وقد علمتنى جدتى العِفَّة والأدب.

تَسحب نفَسًا عميقًا مهمومًا تُخرجه زَفرةً حارَّة تُسدِل رموش عينيها .. تُطأطئ رأسها قليلا ..تَستكمل بصوتٍ خفيضٍ وهى لا تنظر إلى أحد .. لازلت أذكرُ وصاياها. قالت إياكِ إذا احتاجَكِ إظهار أنَّ ذاك الشىء كنتِ ترغبين .. وإنْ احتجتهِ أنتِ فحذارِ من أن تُظهريه .. وإذا ما كان فلا تنطقي.

نظراتُ إشفاقٍ تُتابعها برفق .. تَرفع وجهها وقد عَلَتْه حُمْرةٌ ظاهرة .. تُوجِّه حديثها إلى القاضى بصوتٍ حزينٍ يكاد يتهدج .. هذا أدبٌ تربَّينا عليه .. فماذا جَنيْت.

تبلغ الجلسة منتهاها .. يُقفِل الكاتب المحضر عقِب إثبات ما أمْلتهُ عليه دون أن تدرى أنه مِن أسباب ما كان.

الجزاء

كانت الريح تهبُّ صَرصرًا عاتية .. والسماء مُثقلة بسُحب سوداء متكاثفة حجَبَت الشمس عن البزوغ . ولَسْعة البرد قارسة تلفح الوجوه فتُلجئ الناس إلى التوارى من الطريق.

لم يمنعه هذا الجو العاصف المكفَهرّ عن الذهاب إلى جهة عمله فى اليوم التالى مباشرة للإفراج عنه .. وما أن وطئَت قدماه باب المبنى حتى قصَدَ ذلك المكتب الذى جمعهما قُرابة عام قبل سجنه .. لم يجدها هناك .. كل ما قالوه عنها إنها استقالت.

وَلَّى وجهه شَطر مسكنها غير مُكترثٍ بهذا الزمهرير المكان شبه قرية ساحلية أقيمت قُرب شاطئ البحر خلف منطقة شعبية.

سار يَسْترق الخُطى عَبْر شارع طويل تحُّفه أشجار كثيفة ترنَّحت فروعها وتلاطمت أوراقها ، فكانت ستارًا كئيبًا يزيد من الإحساس بالوحشة.

وقف على بُعد أمتار من منزل بسيط ضُربَ من حوله سور من الطوب الحجرى الذى يُميز بنايات هذا المكان .. لم تُخطئه عيناه .. كم تردَّد عليه قبل ثلاث سنين خلال خِطبته لها وكان له فيه ذكريات جميلة.

راح يتطلع إليه بقلبٍ ملهوفٍ كمن يتطلع إلى قشَّةٍ فى البحر ليتعلق بها مُعتقدًا أنَّ فيها نجاته .. وأخذ يسحب أنفاسًا عميقة من هواء البحر النقىّ ليطرد به هواء الزنزانة الكريه الذى لم تزل آثاره عالقة فى صدره.

دارت برأسه ذكريات هذا البيت الذى قَضى فيه ساعات هنيئة .. وطنَّت فى رأسه آخر عبارة سمعها منها وهُم يقتادونه إلى السجن يوم النطق بالحكم .. "سأنتظرك حتى تعود" .

شردَ بذهنهِ خلال وقفته يُحدِّث نفسه من جديد .. من المؤكد أنها الآن فى انتظارى .. سيَشعر قلبها أننى جئت ستُطِل حالا من النافذة .. أو ربما تكون واقفة خَلف الباب ستتلقفنى بين أحضانها وتغمُرنى بوابل من القُبلات .. سيقفز قلبها من بين ضلوعها فرَحًا .. ستُذهَل من المفاجأة .. وربما تسقط من هولها مغشيًا عليها.

كانت حديثة عهد بالعمل حين التحَقَت به .. جمعهما مكتب واحد وسرعان ما مال كلاهما للآخر فخَطبها.

خدَعها أحدهم وقدَّم لها بيانات على خلاف الحقيقة لتستخرج بها شهادة .. ساعَدَها وحرَّر بخط يده الشهادة التى حملت من بعد توقيعها بصفتها الموظف المختص.

أُجريَتْ تحقيقات مُوسَّعة كانت ستطالها .. تخيَّلها مُكبلة بالأغلال نزيلة السجن فلم يقبل الصورة .. لم يقوَ على تَرْكها لتَلقى هذا المصير.

يعترف أنه الذى زوَّر الشهادة ودسَّها بين أوراقها ليستحصل خُلسة على توقيعها .. لامَت نفسها حينها ولكنها ثمَّنت تضحيته ووعدته بالانتظار .. وعند اقتياده للسجن عاهدته بذات الوعد من جديد.

وبينما خيالات صورة استقباله ترتسم أمام ناظريه فإذا بباب السور ينفتح .. تهلَّل وجهه .. فرحَ فرحةً عارمة .. إنها هى .. بجمالها وحُسن طلعتها .. لم تتغير عما كانت عليه منذ ثلاث سنين .. ولكن مَن هذا الطفل الذى تحمله .. ومن هذا الرجل الذى يتْبعها.

سارت عدَّة خطوات .. فوجِئت به وجهًا لوجه ارتعدَ جسدها .. اضطربَت ملامحها .. أخذت تُحملق فيه وضربات قلبها تكاد أن تُسمع.

جرى صَوْبها .. أصبح على بُعد متر واحد منها. قبْل أن ينطق بحرف صار الرجل إلى جوارها .. أشارت إليه وقالت بصوتٍ مُرتعش .. زوجى .. والتفتت إلى زوجها لتقول "كان زميلى سابقا".

عاد المطر ليهطل بشراسة .. زمْجَرَت الريح وأخذَت تُصفر . استدار لا يدرى أللخلف يسير أم فى اتجاه آخر. أطْلق العنان لساقيه وطفِقَ راجعًا.

بائعا البانجو

يستدعيان المشكوك فى أمرهما لمواجهتهما فيُنكران يصرفانهما مؤقتًا على ذمَّة إجراء المزيد من المعلومات.

تتوصل المعلومات إلى اعتيادهما المبيت فى بناية مهجورة هناك على أطراف القرية .. ينتصف الليل .. يُداهمان المكان .. يبصرانهما يدخنان المخدرات . تهلَّلت سرائرهما. نظر كل منهما للآخر نظرة ابتهاج تعنى نجَحْنا فى خطة البحث وهذا أول الخيط .. ينتفض المدخنان ذُعرًا على إثر رؤيتهما سكينتان كبيرتان يحرز كل منهما واحدة.

أجريا تحقيقًا وعَقدَا فى ذات اللحظة المحاكمة .. لا يخافان أحدًا ولا يؤمنان بوجود قانون .. فى البَدء يُنكر المضبوطاْن .. وبعد جِدال وشدٍ وجذبٍ وفى لحظة عنجهية غير محسوبة يتجرآن القول .. "نعم فَعلنا".

ينظر كل منهما للآخر وهو يُطوِّحُ بالسكين فى الهواء قال كبيرهما : إذن لابد من دفع الثمن.

يتقدم صاحبه . يسحب واحدا من المُعترفَيْن . يطرحه أرضًا .. يُوثِق يديه وقدميه بحبل .. يرْكَل فيه بقدمه ركلاتٍ متتابعاتٍ حتى يصير إلى جوار الحائط .. ثم يجعل وجههه ناحية مسرح الأحداث ليُبصر ما سوف يكون.

يأتيان بالثانى .. يوثقان يديه وقدميه بحبل آخر يكبَّانه على وجهه .. جلسا حول رقبته فى عكس اتجاه بعضهما وراح كل منهما يَجزُّ بسكينه فى عُنقه بكل شراسة.

ينطلق الدم من العنق كنافورة مياه .. ينتحيان جانبًا إلى جوار الحائط تفاديًا للدماء .. ينتفض الجسد .. يتحرك على الأرض لعدة أمتار وكأنه يمشى على صدره .. يسكن بعدها وتصعد الروح إلى بارئها فى السماء.

يُبصر زميله بَشاعَة التنفيذ .. يفتح فاه عن آخره يريد أن يصرخ .. أبَت الصرخة أن تخرج .. خرج صوت مضبوحًا مبحوحًا بالكاد يُسمَع .. يُنظِّف كل منهما سكينه من الدماء فى شعره .. ينتفض ظنًا أنَّ دوره قد حان.

يُشعل كل منهما سيجارة محشوة بنبات البانجو وينفُثان فى وجهه الدخان .. يستعطفهما بذات الصوت

المتحشرج ليُخلِّيا سبيله .. يتوسَّل إليهما بالإشارات بعد أن غاب صوته .. يعدِهُما بأنه ما رأى وما سمع شيئًا مما جَرى ولكن عبثًا حاول إثناءهما .. يُقهقهان لبلاهته .. يسحبانه بعيدًا عن الجدار .. يكبانه على وجهه .. يذبحانه بذات الطريقة.

ينكشف أمر الجثتين المذبوحتين .. تصل إليهما يد العدالة .. يعترفان .. كانا يبيعان المخدرات فى وضح النهار على قارعة الطريق من خلال "تُوك تُوك" يحفظان فيه بضاعتهما .. يحصون العدد فى نهاية اليوم فيكتشفان سرقة "باكتين" من البانجو .. يسترجعان شريط البيع .. كان القتيلان أحدهما يشاغلهما والآخر يقف إلى جوار "التُّوك تُوك" بالقَطْع هما وقطعُ الرِّقاب كان الثمن.

الشمس

استعانَت به كشريك .. فهى كما قالت "لا تَفُك الخط" .. يشهد لها الجميع بالمهارة والذكاء .. تمكنت خلال سنوات قلائل أن تتحول من بائعة خضار على قارعة الشارع الذى تسكنه إلى صاحبة محلات كبيرة .. ثم أخيرًا كما شاعَ عنها إلى "سيدة أعمال".

راقَت فكرتها لجارها صاحب ورشة الرخام .. لديها أموال ستبدأ بها .. ولكنَّ أحدًا لن يقبل استثمار أمواله فى الخضار .. فإذا كان فى تصدير واستيراد الرخام فإن الأمر لا شك سيختلف.

أعدَّت مكتبًا كبيرًا فاخر الديكور والأثاث والواجهات .. اعتلت المكتب يافطة تُبهر الأنظار .. "فلانة للاستثمار" وُزِّعت الإعلانات عن النشاط فى الطرقات وعلى أبواب المساجد .. وتم النشر فى الصحف المخُصَّصة للإعلانات.

فى وقت قياسى كانت حديث المدينة .. تُعطى فائدة مائة فى المائة كل ثلاث شهور .. جرَّبها الناس لمدة سنة كاملة لم تتوقف شهرًا واحدًا .. ولم يقل أحد بحصول أية مشكلة.

انهالت عليها الأموال بغزارة .. جاء الطُّعْم بسمك كثير .. مَن سبق له التعامل باع ما لديه من أصول ثابتة وسلَّمها أثمانها .. ومن يعرف مُجدَّدا يسيل لعابه.

كانت الطوابير تمتد لمسافات طويلة بُغية استثمار الواقفين لأموالهم .. المقابل لا يُقاوَم .. وكانت الأموال تُودع فى حساب مشترك مع شريكها.

رويدًا رويدًا كان التَعلُّل بظروف البلاد وركود السوق .. انتاب الناس القلق .. سرَت أنباء عن هروب شريكها بالأموال إلى "فاس".

تجمهر الناس .. داهمت الشرطة المكان .. كان جواز سفرها يحمل تأشيرة مُغادرة فى اليوم التالى هى الأخرى إلى "فاس".

امتلأت القاعة عن آخرها بالمخدوعين .. بدأت الجلسة فهَبَّ مَن فى الصفوف الأولى لإثبات حضورهم كمدعين بالحق المدنى .. أطباء .. ضباط .. أساتذة جامعة مهندسون .. محامون .. تجار ... إلخ.

جال فيهم القاضى بنظره واحدًا واحدًا كأنه يتفرس ملامحهم ، ودارت فى ذهنه للحظات عدة تساؤلات .. لماذا

صدّق هؤلاء أنَّ تجارةً ما يمكن أن تُدرَّ عائدا مائة فى المائة هل جالسها أحدهم قبل أن يسلمها أمواله .. كيف رأوها وكيف كانت هى تراهم .. ولماذا صدقوها .. و .. و .. إلخ.

أطبق على القاعة فى هذه اللحظات صمتٌ كئيب. بدَّد هذا الصمت بسؤالٍ توجَّه به إليهم .. هل كنتم تصدقون ؟

نظر بعضهم إلى بعض وعادوا إليه بأبصارهم وهم لا ينطقون .. هزَّ رأسه عموديا هزَّتين أو ثلاثة .. ثم توجه إليها فى القفص بذات السؤال .. لماذا صدَّقوكِ .. قالت وهى تبتسم : طمَّاعون.

المَشاغل

لم يقوَ والدها على إبداء شهادته حتى فى جلسةٍ كان لابد أن تكون سِرِّية .. وقف مُطأطئ الرأس يتحاشى التقاء نظره بمن حوله.

حلف اليمين وجاء لينطق فانعقد لسانه وراح فى نوبة بكاء مرير .. ترَفَّق به القاضى إلى حين ثم عاد ليسأله .. نظر إليه بعينين زائغتين دامعتين وأجهش بالبكاء .. خفَضَ بعدها وجهه ومدَّ يده فى جيبه وأخرجها بعدد من الصفحات لمحادثة جرَت على "الواتس آب".

ترَجَّاه فى المحادثة أن يتزوجها .. أجابه فى صفاقةٍ بالغة :

- لا أتزوج عاهرة.

يسأله وكأنه يسترحمه :

- وماذا تريد مِنَّا يا ولدى ؟

يستمر فى صفاقته :

- تعود لى كما كانت ولن أتزوجها.

يستعطفه .. يتمسك هو بموقفه .. بل يتوعده :

- إنْ لم تأتنى غدًا نشرتُ على الملأ ما أرسلتُه لكَ من قبل.

لم تنجح المساومة .. أرسَل صورها العارية ومقاطع الفيديو الفاضحة "لإيملات" وبرامج المحادثات "والفيس بوك" لجميع أصدقائها وصديقاتها .. سرَت الفضيحة بين أقرانها فى كليتها العملية المرموقة سريان النار فى الهشيم. تسقط أمها مغشيًا عليها .. ويُنقل الأب إثر ارتفاع ضغط الدم المفاجئ إلى المستشفى.

يُثبت القاضى ما حوته صفحات "الواتس آب" ويُعفيه من أن يُعيد بلسانه تقطيع قلبه .. فباقى الأوراق تحمل ما كان.

وحيدةٌ هى لأبوين أستاذين فى عِلمهما ..لم تَجد من جليس ولا أنيس وهما يتنقلان من تدريس إلى عمل فى الصيدليات المتعددة المملوكة لهم .. إلى إنشاء المزيد منها .. إلى ..... وإلى .... وإلى .... لا تُقابلهما نهارا إلا مصادفةً فى المصعد .. وعندما يعودان فجرا تكون قد خلدَت إلى نومها.

إستعاضت به عنهما .. يجمعهما صف ثانوى واحد فى مدرسة واحدة .. لم يكن له راعيًا .. والداه مُعاران للخارج ويعيش مع جدته .. إستمرَّا طيلة سنوات ثلاثة لا يفترقان

يَخرجان ويمرحان ويعودان كما يحلو لهما .. لم يسألها أحد إلى أين تذهب .. ومتى عادت .. وفيمَ كان خُروجها .. جوامح الغريزة لم تجد لها كَوابحَ ولا مُراقبًا .. بلغ الأمر حَدّ تصوير لقاءاتهما الجنسية الكاملة بطريق الفيديو .. ولما عادت لرشدها فور دخول الجامعة قاطعَته ونأَت عنه .. فكان ما كان من صَنيعهِ.

يَشْرَع الأطراف فى الانصراف بعد انتهاء المرافعة يستوقفه القاضى لبرهة .. يسأله برفقٍ كأنما أراد أن يوجِّهه :

ـ أنتَ وأُمّها أين كنتما ؟

يُخفِضُ نظره .. تتحرَّك شفتاه كأنها ترتعش .. يُجيب بصوتٍ متهدِّج فيه حشرجة .. (المشاغل)!

سيزوفرينيا

وقف فى القفص مُبتسمًا بلحيته السوداء المهذَّبة المُهَنْدَمة لا يلوى على شىء .. كوكبةٌ من مشاهير المحامين تنتصبُ أمام المنصة للدفاع عنه .. قاطَعَهم فور مُثولهم ليتحدث قبلهم .. رمقوه استنكارًا ولكنه لم يسكت.

لم يدْر أنَّ القاضى وَدَّ فى قرارة نفسه أن يغوص بداخله كيف يفكر .. ما وجه قناعته فيما ارتكب .. وماذا لو أنه استبدل الأدوار ، فكان هو وابنته أو زوجته مكان مَن فعَلَ بهم ما فَعل .. وكيف يَرى حُكم الدين الذى الْتَحَى امتثالا له فى هذه المسألة.

رفع القاضى كفّه فى مواجهة الدفاع أنْ ترَيَّثوا .. ثم أشار إليه ليأتى بما عنده.

ظنَّ أنه على مِنبر زاوية أسفل عمارة أو فى نجع أو كفر أو حارة مجهولة .. بَسْمَل وحَمدَ وأثنى ، واسترسل فى مُقدمة طويلة .. حمْلَق فيه بعض محاميه دون جدوى ليختصر.

وضع القاضى كوعه الأيمن على المنصة ، وأقام ساعده وأسند على كفه الأيمن وجهه والتفَتَ إليه فى القفص

يُتابعه ، نغَزَه عضو اليسار على استخفاء نَغْزًا خفيفًا.. مدَّ القاضى يُسراه برفق وربَتَ بهدوءٍ على رجله بمعنى : فلننتظر.

يستمر الشاب فى خُطبته .. ما صنعْتُ ليس من عِندى جمَعْتُه من الصحف والمواقع الإلكترونية وأعدتُ نشره على صفحتى .. لِمَ انزعاج السلطات هكذا وهِمَّتها فى مداهمتيى وضبْطى .. هذا الذى شكانى وهَمُّوا لنصرته هو عِلمانى لا يقيم للدين وزنًا .. ولا يبغيها دولة إسلامية .. كم هاجمَنا بغير حقٍ مِرارا وتِكرارًا وما هَبَّ أحدٌ لنصرتنا.

أنهى حديثه وأعقَبه المدافعون عنه ، فصالوا وجالوا التماسًا لبراءته.

كان القاضى يتابعهم وشريط الأحداث يمرُّ ببطءٍ أمام عينيه .. مدربٌ فى نادى اجتماعى رياضى بمدينةٍ ما كان يُصوِّر لقاءاته الجنسية مع بعض عضوات النادى .. تَسرَّبَ الأمر وصار فضيحة كبرى .. وجَد الشاب فى الحادث مأربًا هى مدينة ذلك الرجل الذى يناصب جماعته العداء على حد زَعْمه .. هو وأسرته أعضاء فى ذات النادى .. لاكَتْهم المواقع المتربِّصة فنَسبَت لابنته ذات الفعل المشين مع المدرب. تلقَّف

الشاب الحدَثَ وأنشأ صفحة باسم مستعار على "الفيس بوك" وراح ينشر وينشر.

غلَبَتْ القاضى ابتسامة تعَجُّب .. انفرجَت شفتاه عنها لا إراديا والتفتَ إليه يسأله :

- وهل فى الدين اغتياب الناس وقذفهم بالتَّخفِّى وراء أسماء مستعارة ؟!

تحسَّس لحيته مُرورًا بها من أعلى إلى أسفل عِدَّة مرات وأجاب مُبتسمًا :

- مع مثل هذا نعم .. بل يُستباح دمه !

حياة وأكل عيش

وجدَتْ فى تطليقها ومعها طفلة لم تبلغ التاسعة من عمرها صيدًا ثمينًا .. أغرَتها بسهولةِ الأمر كأقصر طريق لكى تعيش .. لم تقاوم الإغراء .. اختارت ألا تعيش حرة وتأكل منه دون حياء .. وعلى الفور انخرَطَتْ فى الرَّذيلة تحت إدارتها لقاء مال.

عدَّة سنوات واتَّخذَت لها مكانًا تديره هى بنفسها يداهمون المكان .. تُقتاد فى ملابس فضفاضة ونقاب يُظهر بالكاد عينيها .. علَّلت ذلك بالتخفى من معارفها.

طفلةٌ لم تبلغ الخامسة عشرة من عمرها تقف إلى جوارها بين الساقطات الأخريات الأربعة .. تبدو براءة الطفولة جَليَّة على ملامحها .. ولولا جسدها الفائر وشهادة الميلاد لظنَّ مَن يراها أنها تجاوزت هذه السن بعشر سنين.

لم تأبه لطفولتها .. جرَفَتْها معها إلى هذا المُستنقع وقدَّمتها لمن يدفع من الذئاب البشرية لينهش لحمها.

نظرها القاضى نظرة حزنٍ فى صمتٍ واختلجَت فى صدره أحاسيس مُتباينة .. تُرى ما الذى دفع بطفلةٍ كهذه

لتسلُكَ هذا الطريق .. وأىُّ أسباب تلك التى نحَتْ بها إلى هَجْر دراستها لتسلكه .. هل تُدرك حقيقة ما تصنع .. وهل تصنعه راضية أم مُجبرة أم مُضطَّرة .. أم أنها استَمْرَأتهُ كمُتعة وجعَلت من الظروف شماعة تُعلِّق عليها أسباب سقوطها.أم تراه مجرد عملٍ له أعباؤه وتبعاته .. وهل .. وهل ؟.

وجدَ نفسه مُنساقًا للغوص فى أعماقها .. الدفاع الحاضر معها يوافق على مناقشتها .. فالقانون يفرض ألا يناقَش المتهم فى الجلسة إلا برضاه أو موافقة دفاعه وليس للقاضى إلا أن يواجهه بالتهمة المسندة إليه فقط فيعترف بها أو ينكرها .. يسألها برفق بعد أن اعترفَتْ :

- لِمَ هذا الطريق ؟

تُجيب بتلقائية ظاهرة :

- أكل عيشنا.

- هل لكِ أبوَان ؟

- والدِى طلَّق أمى وأنا صغيرة وأعيش معها ولا نراه.

- هل هى مريضة ولجأتِ إلى هذا لتُنفقى عليكما ؟

- لا .. أمى لديها مال كثير ولا تحرمنى من شىء.

- تقصدين للمتعة ؟

أطرقَت لبرهة ، ثم عادت لترفع وجهها واستطرَدَت كأنها لم تتوقف :

- وليست مُتعة .. هو عملى .. أكل عيشى . . وأملُّه كأى عمل ولا أشعر خلاله بأى مُتعة .. فى البدء كنتُ رافضة ولكن ما قالته لى كان مُقنعًا .. لو أكملتُ تعليمى بعد الإعدادية بماذا كان ينفعنى .. ولو حصلتُ على أعلى شهادة بكم من المال كانت ستأتينى .. وإن جاءت به فهل كان سيكفينى .. كانت صائبة فاقتنعتُ وعملتُ معها راضية.

يرمقها بنظرة تأمل ثابتة للحظات ، ويتحوَّل بحديثه إلى مديرة الوكر :

- لو أنها ابنتك .. أكُنتِ فاعلةً بها ما فعَلتِ بهذه ؟

استدارت إلى الطفلة قبل أن تجيبه وطوَّقَتها بذراعها المجاور لها وضمَّتها إلى صدرها ضمَّة خفيفة ثم تركتها وأجابت وهى تبتسم :

- هى ابنتى.

يسألها مُتجهمًا :

- تقصدين كأنها ؟.

- ليس كأنها .. هى ابنتى بالفعل.

يشعُر أنها لا تَمَزَح .. يعود إلى الأوراق .. يمسك بشهادة الميلاد .. لم يشغله فيها من قبل سوى السِّن .. يتفرَّس فى اسم الأم .. يعود ليضاهيه مع اسمها .. بالفعل هى ابنتها ! يتعجَّب فى قرارة نفسه ولم يقاطعها .. تَركَها تسترسل :

- كنتُ خادمة عند سيدة غنية .. وكان زوجى جناينى حديقة الفيلا .. ذات يوم شعرتُ بإرهاق شديد فلم أذهب إلى العمل .. وفى نهاية اليوم تحسَّنَتْ حالتى فذهبتُ .. معى مفتاح باب الحديقة .. وكان باب الفيلا المطل عليها مفتوحا توجَّهتُ كعادتى إلى غرفة نومها .. وما أن اقتربْتُ من الغرفة حتى سمعتُ همهمات غريبة وصوت رجل معها .. استطعتُ تمييز الصوت .. هو صوت زوجى .. لم أحتمل ما سمعت من عبارات .....!

دفعْتُ باب الغرفة ودخلتُ لا أدرى ما الذى أقوم بفعله تَسمَّرَت قدماى وانعقَدَ لسانى .. وجدته بين أحضانها عاريين تمامًا كما وُلِدا .. صرَخْت .. قام فكَمَّمَ فاهى وضربنى ضربا مُبرِّحًا ودفعنى دفعًا خارج الفيلا .. عُدت إلى بيتى

لست أدرى كيف أبصرتُ الطريق حتى عُدت .. لم يستح راح يُعنِّفنى بشدة .. ويُحمِّلنى وزر قطع عيشنا لديها .. ثرتُ فيه ثورة عارمة .. طلقنى بعدها.

رُحتُ أبحث عن عمل ليسُدَّ رمَقى أنا وطفلتى دون جدوى حتى قابلتُ صديقتى .. أقنعَتنى بسهولة عملها وكم يُدرُّ دخلا وفيرا .. لم أناقشها .. كنتُ فى قرارة نفسى أتمنى لو ألقيتُ بنفسى بين أحضان أى رجل يُقابلنى ليفعل بى مثلُ ما كان يفعل بها .. ولما كبرَتْ ابنتى ضمَمتُها إلى فريق العمل. فى البدء كانت ترفض .. قصَصْتُ لها قصة والدها مع صاحبة الفيللا وما صار إليه حالنا بعدها .. زوجى أكلَ من جسده والسيدة تدفع راتبه لتنفق على جسدها .. بضاعة سهلة ورائجة .. لِمَ أتكبد عناء البحث عن عمل .. ومن كان سيطعمنا حتى أجد .. لماذا لا أستعمل جسدى مثله .. طالبو المتعة يسعون إلينا ويدفعون بسخاء.

يقاطعها القاضى :

- حتى ابنتك ؟!

- ولم لا .. الجميع خائنون.. فلتأكل كما يأكل والدها وأمها صارت هذه مهنتنا .. بماذا سيفيدها التعليم .. أم تنتظر زوجًا

ويخونها هى الأخرى.

يَشعرُ أن مناقشتها قد طالت .. يرفع يده فى مواجهتها أنْ كَفَى إلى هذا الحد. ينطق بتلك العبارة التى تُنهى المرافعة : "الحكم بعد المداولة".

الشاهد الرابع

لم يزَل مُعتصمًا بالإنكار .. يستأجِل دفاعه لمناقشة الشهود وضَمْ حِرز أداة القتل لعرضها عليهم.

سَرَتْ همهمةٌ فى القاعة اعتراضًا من أهل القتيل. ظنُّوه تسويفًا ليستطيل أمَد التقاضى وتهدأ نيران القضية قابلَتْها همهماتٌ تكتنفها زَمجرة مكتومة من أهل القاتل العائلتان كبيرتان واحتدم الصراع .. جاء كل طرف بعددٍ كبير مما استطاع الظّفَر به من مشاهير المحامين .. تعود القاعة إلى الصمت مع دقاتٍ مُتتالياتٍ على المنصة.

يتعجَّب القاضى لهذا العدد الجرَّار من الدفاع دون أن يُظهر تعجُّبه .. القضية عادية ولا تحتاج إلى مثل هذا الفريق ربما المقصود استعراض القوة المادية والعائلية لكلا الطرفين يستجيبُ لطلبات الدفاع ويَضرب أجلا لمناقشة الشهود.

خلافات مُحتدمة تضرب بجذورها فى عُمق تاريخ العائلتين .. يُؤجِّجها كل حين وحين خُلُوّ مَنصب العُمُديَّة لأى سبب .. ويُزكى نيرانها صراع الترشُّح من جديد.

يَنشَب نزاعٌ عاديٌ بين القاتل والقتيل على الحد الفاصل بين أرضيهما .. يتجمع الجيران لفضِّه كعادة أهل الريف .. النفوس مشحونة بالكراهية .. تثور فى نفس القاتل تراكمات حقد السنين .. يهرع إلى فأسه .. ينهال بها فوق رأس القتيل وجسده .. يلفظ أنفاسه أمام الشهود.

يقع الشهود فى حَيْصَ بَيْصَ .. ثلاثة منهم حسموا أمرهم .. لم يقووا على الشهادة ضد القاتل قريب العمدة. قالوا هُرعنا إلى مكان الحادث بعد حصوله ولم نشاهد القَتْل. رابعهم كان مُنصِفًا .. قال فى التحقيقات إنهم جميعا كانوا حُضورا وأبصراوا القاتل ينهال على القتيل ضربا بالفأس تُواجهه النيابة بإنكارهم .. يقول .. هُم خائفون أما أنا فلست بخائفٍ .. إلى متى الخوف وقد قُتل جارى أمام عَينَىَّ.

لاذَ أهلُ القتيل بهذا الشاهد قبل اليوم المُحَدَّد لمناقشتة توجَّهوا إليه فى مسكنه بجَمْع غفير على رأسه كبير العائلة. قال له كبيرهم : "أنتَ رجلٌ شهم ولا تخاف من أحد وستشهد بالحق مرة أخرى أمام القاضى غدا".

لم ينَم ليلتها .. كان يَظُن أنَّ الأمر قد انتهى بشهادته فى النيابة .. بل كانت المقاطعة التى ضَربَتها حوله عائلة العمدة

تُشعره بالندم أحيانا على تسرُّعه بالشهادة فى حينها .. ولكنه يتذكر قول كبير العائلة الأخرى "أنتَ رجلٌ شهم ولا تخاف من أحد" .. فهو ليس الحمار كما كان يناديه العمدة طيلة عمره وهو يعمل لديه ، إلى أن سافر ابنه إلى الخارج واشترى فدانا منذ سنتين واستقل عنه وتحرَّر من إهاناته ومن ضرَبْه فى أحيان كثيرة .. كم يشعر فى هذه الليلة بالذات أنه أصبح مُهمًّا ويزداد شعورا بالإحساس بالزَّهو كلما تذكَّر أن العمدة نفسه لم يقوَ حتى هذه اللحظة على أن يطلب منه تغيير شهادته.

يناقش القاضى الشهود .. لم يأتِ الثلاثة المراوغون بجديد .. فلم يُطِل الحديث معهم .. أمَّا الرابع فقد حَدَّق فيه قليلا وهو صامتٌ وكأنه يُسائل نفسه .. تُرى هل سيظل هذا الرجل على شهادته أم سينحو مَنْحَى أهل الريف بعد أن تهدأ نيران الحوادث ويتصالحون عُرفيا ويوجِّهون الشهود ليُشَيِّعوا الاتهام لدى مناقشتهم بجلسات المحاكمة.

يسأله عن اسمه وسِنِّه وصناعته .. يُجيب وهو يلتفت ببطء إلى الجالسين من خلفه بعينين خائفتين وملامح مُرتعدة يُلقى عليه صيغة اليمين ليُردِّدها قبل الشهادة .. يَنطقُ منها بكلمتين ويُكمِل الباقى وهو يلتفت إليهم بذات الذُّعر مَرةً أخرى.

لاحَظَ القاضى أنَّ أحدهم يتَبسَّم له كلما التفتَ إلى الخلف .. ولكنه لم يتوقف عند هذه الملاحظة .. نبَّه الشاهد إلى وجوب الثَّبات فى مكانه والإدلاء بشهادته دون خَوْف وأنَّ الشهادة كم هى عظيمة عند الله :

- ما معلوماتك بشأن الواقعة ؟

ترُوح عينا الرجل ذات اليمين وذات الشمال ولا ينطق بحرف .. ظَنَّه القاضى يَهابُ الموقف فطمأنه .. ولكنه عاد لينظر إلى القاضى ثم إلى الخلف ويهمُّ بالكلام ثم يُمسِك عنه .. وإذا بصوتٍ يَصْدرُ من بين الجالسين :

- قُل شهادَتك يا "عبد العاطى".

يأمر القاضى بإحضار صاحب الصَّوت أمام المنصة هو العمدة .. وهو ذلك الشخص الذى كان يتبسَّم كلما التفت الشاهد إلى الخلف فى بَدْء المحاكمة .. يُقرِّر إدخاله القفص وحبسه أربعًا وعشرين ساعة لإخلاله بنظام الجلسة.

يعود إلى "عبد العاطى" ليستحثه على الشهادة. ولكنه فى هذه المرَّة يختلس النظرات إلى القفص ، ثم يعود ببصره إلى المنصة ولا ينطق .. لم يزل القاضى يظنُّه يَهاب الموقف .. يسأله عن مُختصَر شهادته :

- هل شاهدْتَ القاتل وهو يضرب القتيل بهذه الفأس على رأسه حتى ماتَ كما قُلتَ فى تحقيقات النيابة ؟

يُجيب ولم تزَل عيناه تروح رغمًا عنه فى زُعرٍ تجاه القفص ثم تعود وهى زائغة :

- لم أقل هذا فى النيابة .. ولم أرَهُ وهو يَقتُل !!

الذنب والجنون

لم يشغلنى من أحوال المجانين من قبل سوى ما يتعلق بمسئولية أحدهم الجنائية عن جُرم ارتكبه وهو تحت تأثير الجنون .. أو ما شابه ذلك من آفاتٍ عقليةٍ أخرى تَعدِم الإدراكَ والتمييز لديهم لحظة إتيان هذا الجُرم.

ولكنَّ قضية هذا الشاب نَحَتْ بىَ مَنحىً آخر بشأن هؤلاء ، ما طبيعة العالَم الذى يعيشون فيه ؟ .. هل هو عالم من الأحلام .. أم دنيا أخرى من صنع الخيال والأوهام ؟ .. أم يرَوْنَ ما هُم فيه واقعًا وأنَّ الناس هم الشَّواذ عن الناموس وهل لو عادت إليهم عقولهم وتبينوا سبب ما ذهب بها وأدركوا سر جنونهم سيطلبون الموت ؟ .. أم سيَلتمِسُون الجنون مرة أخرى ليعيشوا فى هذا الخيال .. وهل بعد أن تحرروا من شرائع المجتمع وسُنَنه وقوانينه .. لم يعد شيء فى نظرهم مُستحيلاً حتى لو كان الحديث مع الله كما يتحدث الناس إلى بعضهم.

اعترف اعترافًا تفصليًا دقيقًا ينمُّ عن مُدركٍ واعٍ لكلِّ ما فَعل يَبِينُ منه كيف تفَكَّرَ فى قتلهِ قبلها بنحو عدة شهور

كيف رسم بدقة خُطة اختيار الوقت الأمثل للتنفيذ بعد دراسة واعية لجميع تحركاته .. كيف فطَنَ لشراء آلة القتل من بلدة أخرى حتى لا يشك بائعو السكاكين فى بلدته فى أمر شرائها.

انتظرَهُ فجر ذلك اليوم من شهر يناير حتى يعود ولم يُثنه عن عزيمته هُطول الأمطار بغزارة ولا قسوة الرياح وشدة البرودة .. اختبأ خلف شجرة غليظة الجذع متشابكة الفروع كثيفة الأوراق .. أبصره يُدير المفتاح فى باب منزله يفاجئه من الخلف .. يُطوِّقَ رقبته بذراعه الأيسر .. يَكُمُّ فاه بِكَف ذات اليد .. يضربهُ ضربةً قويةً بالسكين الكبير الحاد على عُنقه من الخلف .. يفقد القتيل اتزانه ويهوى جاثيًا على ركبتيه .. يمر بالسكين يمينا ويسارا على جانبى رقبته .. ينهار الجسد .. يطرحهُ أرضا .. يُعاجله بعدة طعنات نافذات فى الصدر والبطن .. تساعده قوته الجسدية على إزهاق روحه فى لحظات تحت جُنْح الظلام.

معلومات رجال البحث تُميط اللِّثامَ عن خُلْفٍ كان بينهما .. يواجهونه فيعترف.

يقول الناس إنه مجنون .. لم يُصدِّق المحقق قالتهم كان يسترسل فى حديثه استرسالاً طبيعيًا ومنطقيًا .. عباراته

مترابطة .. يشعر بالمكان والزمان .. لا يهذى بكلماتٍ غير مفهومة .. ولكنه استمع إلى شهادتهم وأثبتها فى أوراقه.

يعيش مع أمِّه الأرملة وأخته الوحيدة .. قوى البنية يعمل فى المعمار لبعض الوقت .. وتعمل أمه فى أى منزل إذا تعطل هو عن العمل .. وتساعدهما أخته فى الأعمال الحقلية أحيانا .. حَسَن العلاقات بجيرانه وأهل بلدته.

وفجأةً ينقطع عن عمله .. يعاف الناس .. يهجر العمل .. لا يغادر المنزل .. ساءت حالته ويرفض التحدث مع أحد وإذا حدثته أمه أو أخته هاج هيجانا مُدمِّرا.

لزم بعدها سطوح المنزل ليل نهار ورفض أن يغادره وعجز أهله عن إقناعه بالعودة إلى حجرته .. ولما حلَّ الشتاء تكافل أهل القرية وبنوا له غرفة فوق السطوح تحميه برد الشتاء .. واختاروا طفلاً من الجيران ينقل إليه الطعام على السطوح نظرا لعدائه المفاجئ لأمه وأخته ، أما قتْل جاره فكان مفاجأة لهم جميعا.

يُودَع لمدة خمسة وأربعين يوًما مستشفى الأمراض العقلية .. يقطع تقرير المستشفى بجنونه السابق على القتل.

قُضِيَ الأمر بالتقرير وصار بريئًا فى نظر القانون ولكنَّ فُضولاً كان قد تملَّكنى منذ بدء محاكمته للوقوف على سِرِّه ولم يغادرنى حتى بعد ورود التقرير .. كيف يعترف وهو مجنون اعترافًا تفصيليًا دقيقًا هكذا .. وما سبب جنونه وهذه شهادة الجيران .. وما علاقة ذلك بالجار الذى قتله.

دعَوتُه ودفاعه بغرفة المداولة وسألتُه .. فعاد ليعترف بجُرمه الذى صار منه بَراء .. لم أشأ أن أقاطعه .. يتلفَّتَ عن يمينه وعن شماله .. يُشير لمحاميه فيقترب منه .. يهمس فى أذنه بشىء .. قال محاميه إنه لا يريد أن يُسمع الحاضرين أبقيتُ على محاميه فقط واستأذنتُ الباقين فى الخروج ودار بيننا حديث :

- هل تعرف القتيل ؟

- كان جارى.

- لماذا قتلته ؟

- سمِعَنى أتكلم مع الله وقال للناس .. وكانوا يضحكون علىَّ.

- وهل كلمكَ الله ؟.

- طبعًا .. كنتُ أطلع على السطح ليسمعنى .. كلَّمته وردَّ علىَّ الكلام.

- وفيم تحدثت مع الله ؟

يصمت بُرهة ويخفض بصره قليلا إلى الأرض ويستكمل ليقول :

- قلتُ لهُ سامحنى لمعاشرتى أمى وأختى كالأزواج .. حكَيتُ له كل ما حدث .. قلتُ له إنَّ ذلك كان غصبًا عنِّى .. أيام كثيرة لم يَرُد علىَّ الله فبقيتُ على السطح حتى ردَّ عَلىَّ. قال لى : أنا سامحتك.

يُمسِكُ عن الكلام فجأة .. تتَّسع عيناه .. يرتعد جِسمه .. يُطْبِقُ كلتا يديه على هيئة قَبضة .. يهزُّهما بشدَّة وهو ينتفض .. تعلو طبقات صوته .. يقول .. كان جارى يتنصَّت علىَّ فى كل ليلة .. قال للناس كل ما قُلته لربنا .. لماذا يقول للناس ما قلته لله .. ثم أغمض عينيه وولَّى وجهه شطر الحائط وراح فى نوبةٍ بكاء.

الرغبة والانتقام

ربما كان شاذًّا .. ربما مجرَّد مجرم .. ولكنَّ أمره كان مُحيِّرا .. جاوز الستين من عمره بقليل .. عثروا عليه بعد جهد مُضنٍ ليفك ألغاز حادثتين مماثلتين كانتا تدلان على أن فاعلَهما المجهولَ شخصٌ واحد.

ومما زاد تعقيد البحث أن الضحيَّات فى ذلك المجتمع البدوى كُنَّ يؤثرن كتْم نزف جراحهن على البوح بتفاصيل ما كان .. ووأد الفضيحة إيثارًا على عقاب فاعلها مهما كانت الآلام.

لم يشغلنى أمر الجريمة وأدلتها ومدى ثبوتها بقدر ما شغلنى أمره هو شخصيا .. فكم من جرائم بعد حصولها نجد أنَّ الخيال كان يعجز عن تصورها لولا أنها وقعَت.

جثة لسيدة على مشارف الثمانين من عمرها .. عثروا عليها فى فناء مسكنها البدوى المُكوَّن من غرفة واحدة معروشة بالأحطاب .. طعناتٌ مُتعدِّداتٌ بالصدر والبطن أودت بحياتها .. ملابسها ممزقة وانحسرت عنها الملابس

الداخلية فأظهرت عورتها .. وتقبض بيدها على خُصلة من شَعْر آدمى يشوبه البياض.

الفاعل مجهول لعدة أيام حتى قال شاهد إنه رآه قُرب منتصف تلك الليلية الصيفية يمُرُّ بجوار سور عِشَّتها .. شَعْرُ رأسه الذى يشوبه البياض غير منتظم وغابت عنه خُصلة بدا الفراغ الذى كانت تملؤه واضحًا .. وآثار خدوش فى ساعديه تَحدُث من مثل أظافر.. وبتفتيش مسكنه يعثرون على سكين مطبخ ملطخة بالدماء .. لم يجد مَناصًا من الاعتراف.

صنعَتْ الحياة الصحراوية من بُنيانه الجِّسمى نَحافة جعلته يبدو فى مظهر رجل فى الأربعينيات من العمر وتعطيه مظهر صحة واضحة .. يعيش بمفردة فى عِشَّة داخل سور مبنى من الطوب الحجَرى .. لا زوجة له ولا ولَد .. اعتاد السَّهر والسُّكر بما يحصل عليه من نقود يسرقها .. أومن ثمن ما يسرقه من أشياء يبيعها بَخْسًا .. يلفظه الناس لسوء أخلاقة ولا يستعملونه فى أى عمل.

تاقت نفسه إلى ممارسة الرذيلة ، فاستلَّ سكين المطبخ وخرج يعرف وجهته .. فقد اعتاد اغتصاب السيدات المُسنَّات اللائى يعلم أماكن إقامتهن وظروف حياتهن .. أدْلى

بأسماء أربعة فَعَل بِهنَّ ذات الفعل ولم تُبلغ اثنتان منهن. كانت الأخرتين قد أبلغتا مع تخفيف وطأة الحدَث درءًا للعار قالتا فى حينه إن مجهولاً حاول ذلك وقاومتاه فلم يبلغ مأربه ولكنه مسَّ بعوراتهما .. فجىء بمن لم تُبلغا فأنكرتا قوله خوفًا من أهلهما.

فى تلك الليلة تذكَّرَ القتيلة .. كانت من صديقات والدته .. يعرف تفاصيل حياتها .. تعيش بمفردها ولا يزورها أقاربها إلا كل حين نهارًا من خلال مرور عابر بها. قال إنها كانت نائمة .. اقترَبَ منها يتحسَّس جسدها . فزعت من نومها .. قاومته مقاومة شرسة لم يكن يتوقعها .. لم يتمكن منها رغم قوته التى تعادل أضعاف قوتها .. عرفَتْه .. نادته باسمه وهى تلعنه .. سُقِطَ فى يده .. إن لم يقتلها قَطَّعه أهلها إربًا وألقوا للطير بلحمه.

الدليل لا نِقاش فيه .. اعترافٌ وتقرير معمل باثولوجى عن شَعْره الذى ماتت وهى تقبض عليه .. وآثار من جِلده فى أظافرها .. وفصيلة دمها على السكين .. كان ما يشغلنى هو أمر آخر .. لماذا السيدات المسنَّات بالذات ؟.

فى جلسة سرِّية ناقشْتُه .. جعَلتُه دون أن يشعر يَعرُج على ما أبتغى .. كانَ وحيدًا لأبوين يرعيان الغَنم .. فى صِباه ماتا وتركاه لجدَّته الصارمة القاسية .. كانت تكويه بالنار لتدفعه لرعى الغنم .. لم يقبل مهنة والده .. ساءت أحواله وباعت جدَّته الغنم .. ولم يفلح فى إيجاد عمل .. كان يسرق ويكذب ويعود لها بما يسُد رمقهما مُدَّعيًا ممارسته لأى حرفة وكان ينام بجوارها حتى بلغَ الحُلُم.

غلبَهُ شيطانه ذات يوم وتحرَّش بها وهى نائمة. تمكَّنَت منه وأوثقته إلى عامود الخيمة وأوسعته ضربا مُبرِّحًا وكَيًا بالنار كاد أن يُودى بحياته .. ومنعَت عنه الطعام يومين كاملين لم يذُق إلا شربة ماء كل حين حتى لا يموت .. ثم طردته طردًا نهائيًا فهام فى الصحراء على وجهه دون عمل. ولم يَعُد إلى عشَّتها إلا بعد وفاتها .. ثم باع دارها وبدَّدَ ثمنها وأقام لنفسه عِشَّة على زاوية فى مُنعطف طريق تأويه نهارًا حتى إذا جَنَّ الليل خرج لممارسة جميع أشكال جُرمه وأبرزها اغتصاب المُسنَّات .. حتى كانت واقعة هذه العجوز لِيُؤخَذَ بها وبما سَلَفَ مما أتى.

مَطرقة الدليل وسِندان المنطق

لم تُصبنى قضية بأرقٍ وحيرة كما أصابتنى تلك القضية القضاء الجنائى عقلٌ ومنطق .. ما يُجافى العقل والمنطق والمجرى العادى للأمور لا يستقيم كدليل .. قاعدة ثابتة نُنزلها على الأدلة دون عناء .. وكم أدَّت بنا مرتاحي الضمير إلى أقْضيةٍ بالبراءة .. ولكن ماذا لو كان الدليل منطقيا ثابتا عقلا .. إلا أن الإدانة نُزولاً على حُكمهِ هى التى تجافى كل عقل وكل منطق ؟!

كمِينٌ مُدجَّجٌ جميع أفراده بالبنادق الآلية .. وعددٌ يُقارب العشرة من ضباطٍ تَحمل أكتافهم نجومًا ونسورًا وسيوفًا متقاطعة .. عوائقُ مُروريةٌ تُجبر السائقين على خَفْض السرعة ليمرُّوا من خلالها بحركاتٍ ثُعبانية.

يتوقف قائد السيارة النصف نقل المحمَّلة بالبرسيم يُحيط بها من الأمام ومن الخلف ومن الجانبين جنودٌ مدربون على القفز والصياح والجثُوّ على الركبتين فى ثوانٍ .. فى لمح البصر يوجهون فُوَّهات البنادق إلى السيارة من جميع الجهات ضابطان يجريان نحوها .. يجذب كل منهما بابًا ليفتحه . ينزل

السائق القروى مَبهوتًا رافعًا يديه إلى أعلى كما اعتاد أن يشاهد فى الأفلام .. تنزل من جواره سيدة أربعينية فى ملابس سوداء شبه بدوية .. رابطة الجأش لم تعبأ بما رأته ولم يهتز لها طرْف .. يَحذو حَذْوَه اثنان آخران كانا يستقلان السيارة فوق البرسيم .. يُقبَض عليهم .. ويُسَلَّمون لآخرين للتَّحفظ عليهم.

عددٌ آخر من الجنود أكثر مهارة يقفزون فوق السيارة يُلقون بالبرسيم على الأرض بحركات متلاحقة .. وكأن شريطًا سينيمائيًا يقوم "المونتير" بتسريعه لتمر اللقطات سريعًا كى لا تُلمَح كامل معالمها .. طبلية خشبية تكسو الصندوق ينزعونها فى لحظاتٍ معدودة .. ويُلقون بها أرضًا هى الأخرى وكأنها ورقة فى مَهب الريح .. يرفعون من تحتها خمسة بنادق آلية وصندوق خشبيًا مملوءًا عن آخره بذخائر مما تستخدم على ذات الأسلحة.

السيدة غَزَّاوية .. لها مُصاهرة بأهل محافظة بشرق البلاد .. جاءت عبر الأنفاق واستَجْلبَت السيارة بما عليها عائدة بها إلى بلدها .. قالت بصوتٍ أجَش ورأس مرفوعة هى أسلحتى وهى ذخيرتى .. وضَعْتُها فى السيارة كما

ضبطتموها ومن فوقها البرسيم .. وهؤلاء لا يعلمون عنها شيئًا .. حمَّلتها فى غيبتهم.

تنعقد المحاكمة .. جميعهم فى قفص الاتهام. واجَهْتُهم بالتهمة فلم ينكروا .. حتى مَن أرادَت المرأة تنحيتهم عن الاتهام اعترفوا.

يتَقدَّم الدفاع ليُبدى طلباته .. يعلو صوتها من داخل القفص تطلب التحدث .. تستمر فى حديثها استكمالا لتبرير طلبها :

- إنَّ السيدة فاطمة ترافَعَت عن نفسها فى مسجد رسول الله أمام أبى بكر فى قضية "فدك" حين صادَر الأرض التى وهبها لها والدها سيد الخلق لمَّا صالحه يهود هذه البلدة على أرضهم لم يمنعها أبو بكر من المرافعة .. دعونى أقول ما عندى.

صَمتٌ يُطبِقُ على القاعة .. تَشْرئبُّ الأعناق إليها تُتابعها .. الدفاع يلتزم الصمت مع الصامتين .. أُحضِرت المرأةْ أمام المنصَّة .. قالت بصوتٍ ثابتٍ قوى الطبقات متناسق الوتيرة :

ـ دخَلَ الغاصبون بيتى كما دخلوا من قبل أرضى .. يعلمون جهادى ضدهم .. ضربوا بناتى الثلاثة وولدى الصَّبى ضربًا

مُبرِّحًا .. لم نقبل إهانتهم .. قاومناهم بأيدينا ما استطعنا جرَّدونى وبناتى أمام نجلى وأمام عساكرهم حتى صِرنا عَرايا كما ولدتنا أمهاتنا .. حطَّموا ما فى البيت .. دهسوا الطعام والشراب بأرجلهم .. واعتبروا كل هذا مجرَّد إنذار فخلُّوا سبيلنا بعد اعتقال لمدة أسبوعين.

تصمتُ بُرهة .. تسحب نفَسًا عميقًا تُخرجه زَفرةً حارَّة .. ترفع سبَّابتها اليُمنى .. ترتعش يدها .. تعلو دون أن تدرى طبقات صوتها .. تستكمل :

ـ غَلَى الدَّم فى عروقى .. شعرتُ بالمذِّلةِ والمهانة .. أفَقتُ من اللَّطمة فشعرتُ بالعار .. قرَّرتُ الثأر لى ولبناتى وولدى لأرضى وعِرضى .. اشتريتُ البنادق الخمسة والذخيرة بعدد أفراد أسرتى .. خدَعْتُ السائق ومن معه وواريتها تحت البرسيم دون علمهم.

تُطرق لبرهة هى مقدار ابتلاع ريقها .. تسحب نفَسًا يخرج منها تنهيدة حزينة .. علامات الإجهاد تنال من صوتها فى هذه المرَّة .. تعود لتستكمل :

ـ حكايتنا معروفة .. وثَّقَها صحافيون بالتصوير والفيديو ساعة حصولها .. منشورة على "يوتيوب" .. راجعوها يا سيّدى أرجوكم .. لو كنتُ كاذبةً اسجنونى.

يتقدم محاميها من المنصة .. يرفع حافظة مستندات ليقدمها .. عدة صحف محلية انطوت عليها الحافظة .. تتصدَّر إحداها بالفعل صورة المرأة تفترش الأرض وجنود يجرُّونها عُنوة .. وفى الخلفية آخرون يقبضون على صِبْية .. وفى الصحيفة الأخرى كذلك .. وفى الثالثة ذات الصورة. وسُطِّر من تحتها جميعا تفاصيل ما قالت.

يرفع الرجال الثلاثة أيديهم فى القفص التماًسا للتحدث مثلها .. أشَرْتُ لها لتنتظر .. سألتهم وهم فى مكانهم عن مطلبهم .. قالوا لا .. ليس كما قالت .. نحن نعلم التفاصيل كلها .. ساعدناها فى مطلبها .. لسنا أقل منها رُجولة .. جئنا لها بالبنادق والذخيرة وتطوَّعنا لتوصيلها فلتدافع عن عرضها وأرضها.

الحُضور مَشدوهون .. اتَّسَعت العيون وترَقرَقت فيها الدموع .. يصيح أحدهم .. "الله أكبر" .. غلبَته مَشاعرَهُ فانطَلَقَت منه الصَّيحة .. فقَدَ الإحساس بالمكان فانصاع لانفعاله .. يعتذر .. لم أقِف عند فِعلته .. ولو لم يعتذر ما لُمته.

يتوقَّف الرجال عن الكلام .. يُسيطر على القاعة جوٌ غريب .. صراعٌ بين دليل سليم ومَنطق قوى .. حَيْرةٌ بالغة ومشاعرَ متضاربة .. كان لابد من رَفْع الجلسة مؤقتًا للاستراحة على أن تعود للانعقاد بعدها.

مولانا الإمام

كنتُ أعرفهُ .. كم أدَّيتُ الصلاة من خلفه فى سِنىّ حياتى الأولى .. وكم كانت تعجبنى خُطبه ودروسه الدينية المُرقِّقة للقلوب الدَّاعية للتقوى.

كان إمامًا وخطيبًا للمسجد الكبير المجاور لمسكن أسرتى .. ولكنَّ معرفتى به لم تكن تلك المعرفة التى تمنعنى من نظر الدعوى التى أقامتها أرملته ضد أبنائه من زوجته الراحلة طلبًا لميراثها .. بل لم تبلغ تلك المعرفة درجة أن أستشعر الحرَج .. فلم يكن بيننا علاقة مباشرة.

كنتُ أراه مثلما يراه باقى الناس .. ورِعًا .. حُلو الحديث ودائم ربطه بآيات من القرآن وبالسُّنة .. مُوجِّهًا إلى حُسن الفضائل .. ناصحًا للناس بمراعاة الحدود والحقوق دائم التذكير بالموت ومُبالغًا فى الحثِّ على الفوز بحُسن الخاتمة ولم يكن ذا علاقات واسعة .. فلم يدَّع أحدٌ حصول معاملةٍ معه تنمُّ عن غير هذه الصورة الظاهرة التى ألفوه عليها.

مات مولانا .. وكعادة الوارثين سرعان ما دَبَّ الخلاف حول الميراث بين أبنائه من زوجتة الراحلة و زوجته

الثانية .. قالوا لها لا شىء لكِ .. باع لنا والدنا كل ما يملك من قبل أن يتزوجك .. وقالت لهم : عقودكم مزورة ولسوف تعلمون .. فليس لمثله أن يفعل هذه الفِعلة الشَّنعاء.

تبسَّمتُ ساخرًا من قولهم وأنا أطالع الأوراق. أثارت فى دخيلة نفسى عجَبٌ على تصرف الأبناء .. أإلى هذا الحد يكون إنكار الميراث .. وإلى هذه الدرجة يجحد الناس قواعد تقسيمه التى أنزلها ربُّ العباد من فوق سبع سماوات أينسبون بهذه البساطة إفكًا لهذا الرجل الصالح الذى لا يتصور أحدٌ ممن يعرفونه نسبة هذه الفِعلة المُشينة إليه.

طعنَتْ الزَّوجة بالتزوير على التوقيعات .. ولامَت عليهم سذاجة ما فعلوا وهم يعلمون جيدًا أنَّ أباهم كان صالحا .. ليس هو مَن يقترف مثل هذا الإثم.

جاءوا بأوراقٍ شتَّى للمضاهاة .. وكان جُلُّ اهتمامى هو إحضار أوراق غيرها من جهة عمل مولانا فى آخر عهده بالوظيفة ووثيقة زواجه الأخير لإجراء المضاهاة عليها.

مَرَّ الوقت سريعًا سريعًا حتى حانت تلك الجلسة المرهونة بورود التقرير .. تلقَّيتُه بابتسامةٍ ساخرة وعقلى الباطن يُحدِّثنى أنَّه لا شك سيكشف زَيْف أبناء مولانا فقد أضاعوا وقتهم وسيخسرون دعواهم.

فضَضتُ المظروف المنطوى على التقرير بتؤدةٍ ودونما فُضول .. كنتُ واثقًا فى قرارة نفسى من قَناعتى .. لن يكون التوقيع أبدا توقيع مولانا.

مرَرتُ ببصرى سريعًا على المقدمات ومحاضر الأعمال كنتُ متشوقًا إلى بند النتيجة .. كأنى أريدُ أن أثبتَ لنفسى أنَّ ظنِّى فى مولانا لم يخِب.

وما أن بلغتُ النتيجة حتى توقَّفتْ حواسِّى أمام السطرين الأخيرين "التوقيعات حُرِّرَت فى ظروف طبيعية وسِياق مُتَّصل وفى تاريخ يسبق تاريخ الزواج الثانى بأسبوع .. وجميعها جميعها لمولانا الإمام" !

هالنى ما رأيت .. وقفزَت إلى ذهنى حكاية كان يحكيها لنا والدى فى صِغرنا عن جار لنا إسمه (.....) منعَ بناته الأربعة الميراث .. وباع كل ما يملك لابنه الوحيد.

كان والدى من جيل مولانا وكانا جارين .. وأذكر أن سبب روايته تلك الحكاية لنا أنه وبعض الجيران قد تدخلوا عُرفيًا لإقصاء والدهنَّ عن فِعلته ولكنهم عجزوا .. فصار والدى يتندَّر بها .. ويتعجَّب كيف أنَّ ذلك الرجل .. وهو يقوم على شأن كُتَّاب القرية فى حينه ويُحفِّظ الأطفال القرآن الكريم يفعل ما فعَل.

ولستُ أدرى لماذا الآن جادت علىَّ قريحتى باسم ذلك الرجل.. إنه كما كانوا يُلقِّبونه الشيخ (.....) .. يا للمفارقة .. إنَّ لقب العائلة واحد .. سألتُ أحد أبناء مولانا عنه .. قال : هو جَدِّى لوالدى.

الفهرس

- هذه اليوميات ٧
- تقديم ١١
- خارج نطاق الخدمة ١٥
- على هامش قصاص ١٩
- الحكم عنوان الحقيقة ٢٣
- حتى لا يناله أحد ٢٧
- غياب ٣١
- سقطا فى الإخراج ٣٣
- سراب وأطفال ٣٥
- هَوَس ٣٧
- قرابين الشيطان ٣٩
- وجدان ٤٣
- كواليس الخيانة ٤٧
- عندما يرعى الذئاب ٥١
- أسباب ما كان ٥٥
- الجزاء ٥٩

- بائعا البانجو ٦٣
- الثمن ٦٧
- المشاغل ٧١
- شيزوفرينيا ٦٥
- حياة وأكل عيش ٧٩
- الشاهد الرابع ٨٥
- الذنب والجنون ٩١
- الرغبة والانتقام ٩٧
- مطرقة الدليل وسندان المنطق ١٠١
- مولانا الإمام ١٠٧
- **الفهرس.** ١١١

تم بحمد الله